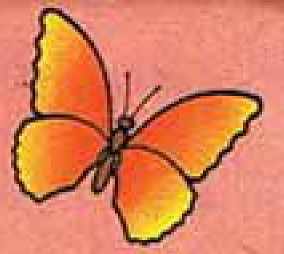


كتب الفراشة - القِصص العالميّة

رِحْلَة إلى قَلْبِ الأرْض







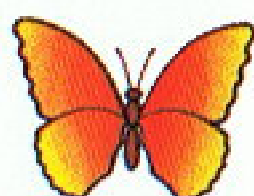


كتب الفراشة - القصص العالميّة

رِحْلة إلى قلْبِ الأرْضِ



تأليف : جول ڤِرْن
ترجَمَة : هَاني تابري

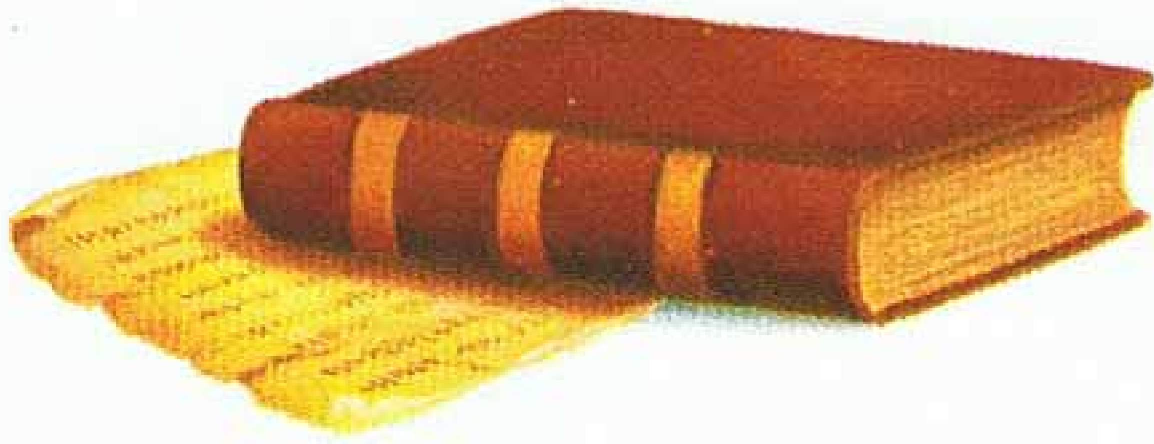


مَكتبة لبْنان ناشِرُون

مَكتبة لبنان ناشِرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وُكلاء ومُوزِّعون في جَميع أنحاء العالَم

الطبعة الأولى ١٩٩٥
رقم الكتاب 01 C 196819

طُبِعَ في لبنان



مقدّمة

كانَ جول ڤِرْن طالِبًا في كُلِّيَّةِ الحُقوقِ عِنْدَما نَشَرَ، في إحْدى الصُّحُفِ الفَرَنْسِيَّةِ، بِضْعَ حِكاياتٍ تَدورُ حَوْلَ الأَسْفارِ والرِّحْلاتِ. ولَمّا لاقَتْ هٰذِهِ الحِكاياتُ نَجاحًا، تَخَلّى ڤِرْن عَنْ دِراسَةِ الحُقوقِ واتَّخَذَ الكِتابَةَ مِهْنَةً لَهُ. ولَمّا تُوُفِّيَ عامَ ١٩٠٥ كانَ قَدْ أَصْبَحَ أَشْهَرَ كاتِبٍ حَوْلَ مَواضيعِ الرِّحْلاتِ والقَصَصِ العِلْمِيِّ بِلا مُنازِعٍ. وهٰذا الكِتابُ «**رِحْلة إلى قَلْب الأَرْض**»، هُوَ ثاني رِوايَةٍ أَلَّفَها، وهِيَ قِصَّةُ مُغامَراتٍ مُثيرَةٌ تَجْمَعُ بَيْنَ الواقِعِ والخَيالِ في أُسْلوبٍ آسِرٍ.

تَبْدَأُ المُغامَرَةُ بِظُهورِ وَرَقَةٍ قَديمَةٍ داخِلَ كِتابٍ يَعودُ تاريخُهُ إلى أَكْثَرَ مِنْ سِتِّمِئَةِ سَنَةٍ. وقَدْ قامَ راوِيَةُ القِصَّةِ أَكْسِل وعَمُّهُ العالِمُ الجيولوجِيُّ الغَريبُ الأَطْوارِ البروفِسورُ لِيدِنْبُرُك بِمُحاوَلاتٍ عَديدَةٍ لِقِراءَةِ الوَرَقَةِ وتَفْسيرِ رُموزِها. ولَمّا تَوَصَّلا إلى أَنَّ كاتِبَها هُوَ عالِمٌ أَيسلَنْدِيٌّ مِنَ القَرْنِ السّادِسَ عَشَرَ ويَصِفُ فيها كَيْفِيَّةَ الوُصولِ إلى قَلْبِ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ، قَرَّرَ البروفِسورُ، بِحَماسٍ بالِغٍ، القِيامَ بِهٰذِهِ الرِّحْلَةِ الاستِكْشافِيَّةِ مَعَ ابْنِ أَخيهِ، أَكْسِل، بالرُّغْمِ مِنَ المَخاوِفِ الَّتي أَبْداها هٰذا الأَخيرُ.

في أَيسلَنْدا، اسْتَعانا بِخِبْرَةِ دَليلٍ أَيسلَنْدِيٍّ شُجاعٍ وأَمينٍ يُدْعَى هانز، رافَقَهُما خِلالَ الرِّحْلَةِ وكانَ خَيْرَ عَوْنٍ لَهُما. وفي أَعْماقِ الطَّبَقاتِ - تَحْتَ الأَرْضِ - اكْتَشَفَ الثَّلاثَةُ

عالَمًا قائِمًا بِذاتِهِ يَفوقُ كُلَّ تَصَوُّرٍ، ولا يَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى حَياةِ القَرْنِ التاسِعَ عَشَرَ الّذي عاشوا فيهِ. فَهُناكَ غاباتٌ مِنْ فُطورٍ عِمْلاقَةٍ، ومُحيطاتٌ مُتَرامِيَةُ الأَطْرافِ، وقُبَبٌ سَماوِيَّةٌ غَريبَةٌ، ورَأَوْا حَيَواناتٍ وكائِناتٍ كانَتْ قَدِ انْقَرَضَتْ مِنْ وَجْهِ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ مُنْذُ عَصْرِ الجَليدِ.

ويَمُرُّ المُغامِرونَ الثَّلاثَةُ، خِلالَ الرِّحْلَةِ، في أَوْقاتٍ عَصيبَةٍ جِدًّا نُحِسُّ فيها أَنَّ أَمَلَهُمْ في العَوْدَةِ إلى وَجْهِ الأَرْضِ ضَئيلٌ جِدًّا. فَقَدْ ضَلّوا طَريقَهُمْ مَرّاتٍ عِدَّةً، وضَرَبَتْهُمْ عاصِفَةٌ كَهْرَبائِيَّةٌ صاعِقَةٌ، وكادَتِ الوُحوشُ الجَبّارَةُ تَلْتَهِمُهُمْ، وجَرَفَتْهُمُ التَّيّاراتُ المائِيَّةُ وحَمَلَتْ مَعَها كُلَّ ما لَدَيْهِمْ مِنْ أَعْتِدَةٍ وزادٍ، فَأَحَسّوا بِدُنُوِّ الأَجَلِ...

لَيْسَتْ «رِحْلَة إلى قَلْب الأَرْض» رِوايَةَ مُغامَراتٍ فائِقَةٍ وأَحْداثٍ مُثيرَةٍ فَحَسْبُ، إِنَّما هِيَ أَيْضًا تُبْرِزُ أَهَمِّيَّةَ الشَّجاعَةِ وأَثَرَ الصَّداقَةِ والتَّعاوُنِ. فَالرِّجالُ الثَّلاثَةُ خاضوا مَعْرَكَتَهُمُ المُتَواصِلَةَ ضِدَّ قُوى الطَّبيعَةِ الهائِلَةِ مُتَّحِدينَ مُتَماسِكينَ، فَصَمَدوا وانْتَصَروا، وخَرَجوا أَحْياءً لِيَنْقُلوا لَنا إِحْدى أَغْرَبِ القِصَصِ الّتي عَرَفَها تاريخُ الآدابِ العالَمِيَّةِ.



رِحْلَة إلى قَلبِ الأرض

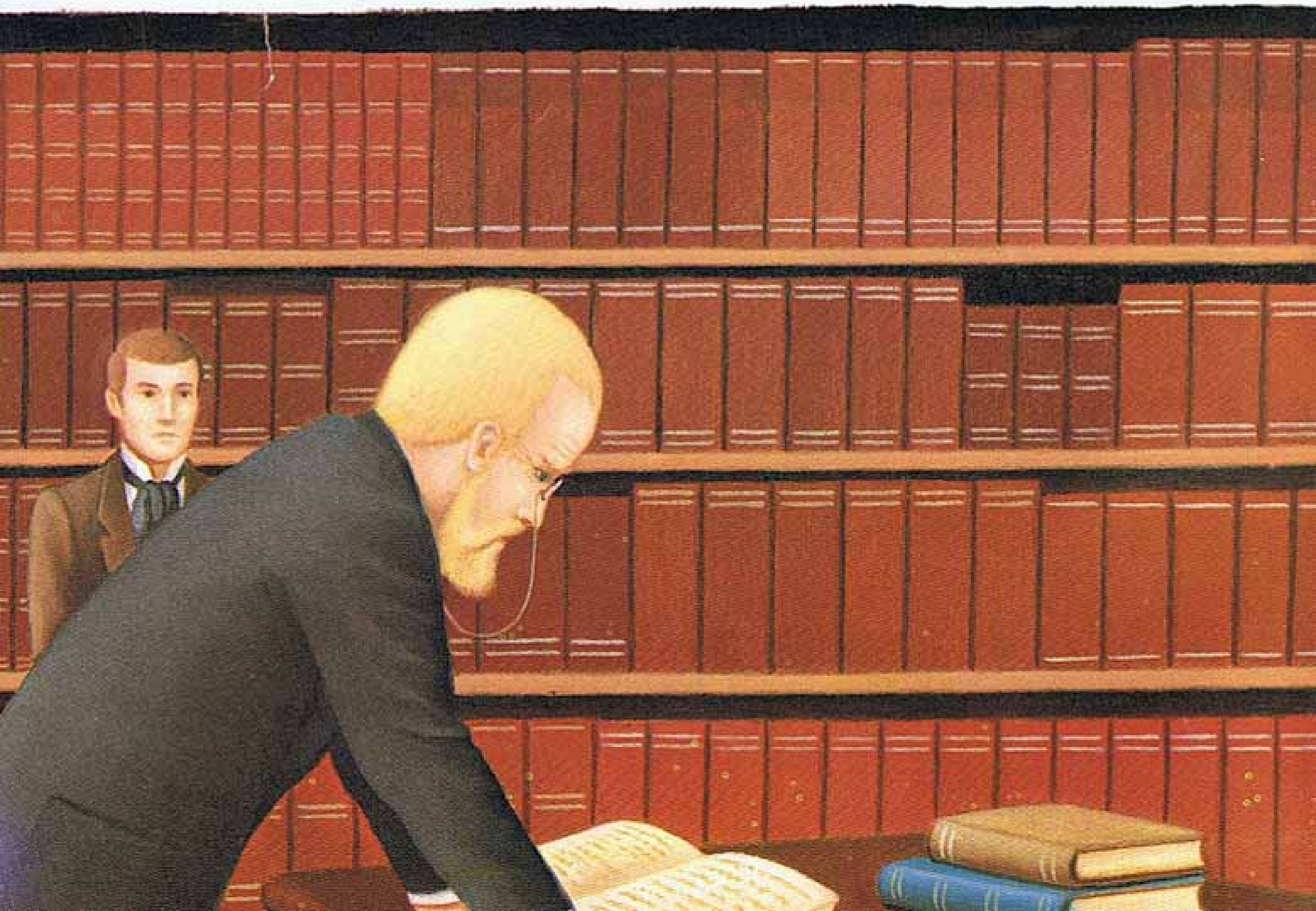
عَمّي البروفسورُ لِيدِنْبرُك

بَعْدَ ظُهْرِ اليَوْمِ الرّابعِ والعِشْرينَ مِنْ شَهْرِ أيّارَ (مايو)، ١٨٦٣، عادَ عَمّي البروفسورُ لِيدِنْبرُك مُسْرِعًا إلى بَيْتِنا الصَّغيرِ في كونِغْستراسّ، هامْبورْغ، وكانَتْ تَبْدو عَلَيْهِ أماراتُ الاضْطِرابِ، مِمّا أثارَ القَلَقَ لَدى أَهْلِ البَيْتِ جَميعًا.

قالَتِ الطّاهِيَةُ مَرْتا: «وَيْحي! لِماذا عادَ مُبَكِّرًا؟ لَمْ أُتِمَّ إعْدادَ عَشائِهِ بَعْدُ.»

أَمّا أنا فَلَمْ أَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِتَحَمُّلِ طِباعِ عَمّي الغَريبَةِ في مِثْلِ تِلْكَ الحالاتِ. فَقَرَّرْتُ الانْسِحابَ إلى غُرْفَتي في الطَّبَقَةِ العُلْوِيَّةِ. ولٰكِنَّ صَرْخَةً مُدَوِّيَةً انْطَلَقَتْ مِنْ غُرْفَةِ المَكْتَبِ وأَوْقَفَتْني عَلى أُولى دَرَجاتِ السُّلَّمِ: «أَكْسِل، تَعالَ حالًا».

اِسْتَدَرْتُ صاغِرًا ودَخَلْتُ الغُرْفَةَ لِأَجِدَ عَمّي وَراءَ مَكْتَبِهِ يَتَأَمَّلُ كِتابًا قَديمًا.



وما إنْ رَآني حَتّى هَتَفَ: «أُنْظُرْ إلى هٰذا الكِتابِ الرّائِعِ. إنَّهُ مُدْهِشٌ، فَتاريخُهُ يَعودُ إلى أَكْثَرَ مِنْ سِتِّمِئَةِ سَنَةٍ.»

ولَمّا أَوْمَأَ إِلَيَّ اقْتَرَبْتُ وأَنا أُسائِلُ نَفْسي عَنْ سَبَبِ شَغَفِهِ بِهٰذا الكِتابِ المُهْتَرِئِ الّذي كادَ البِلى يَأْكُلُ غِلافَهُ الجِلْدِيَّ.

سَأَلْتُهُ بِداعي المُجامَلَةِ لا بِداعي الفُضولِ: «وَما هُوَ مَوْضوعُهُ؟»

ولَمْ أَسْمَعْ أَيَّ إجابَةٍ إذْ كانَ البروفسورُ غارِقًا في تَأَمُّلِ تُحْفَتِهِ الجَديدَةِ.

الوَرَقَةُ الغَريبَةُ

بَيْنَما كانَ عَمّي يُقَلِّبُ الكِتابَ بِاهْتِمامٍ بالِغٍ سَقَطَتْ مِنْ بَيْنِ صَفَحاتِهِ وَرَقَةٌ قَديمَةٌ مُبَقَّعَةٌ، واسْتَقَرَّتْ عَلى الأَرْضِ، فَالْتَقَطَها عَمّي بِسُرْعَةٍ.

بَعْدَ أَنْ تَفَحَّصَها مِنْ كُلِّ جَوانِبِها هَتَفَ: «هٰذِهِ الكِتابَةُ - يا بُنَيَّ - بِاللُّغَةِ الأيسلَنْدِيَّةِ القَديمَةِ. ولٰكِنَّها مَكْتوبَةٌ عَلى شَكْلِ رُموزٍ.» ثُمَّ أَطْرَقَ قَليلًا وأَضافَ: «لا بُدَّ أَنْ يَكونَ في هٰذِهِ الوَرَقَةِ سِرٌّ. فَما هُوَ مَعْنى هٰذِهِ الكِتابَةِ؟»

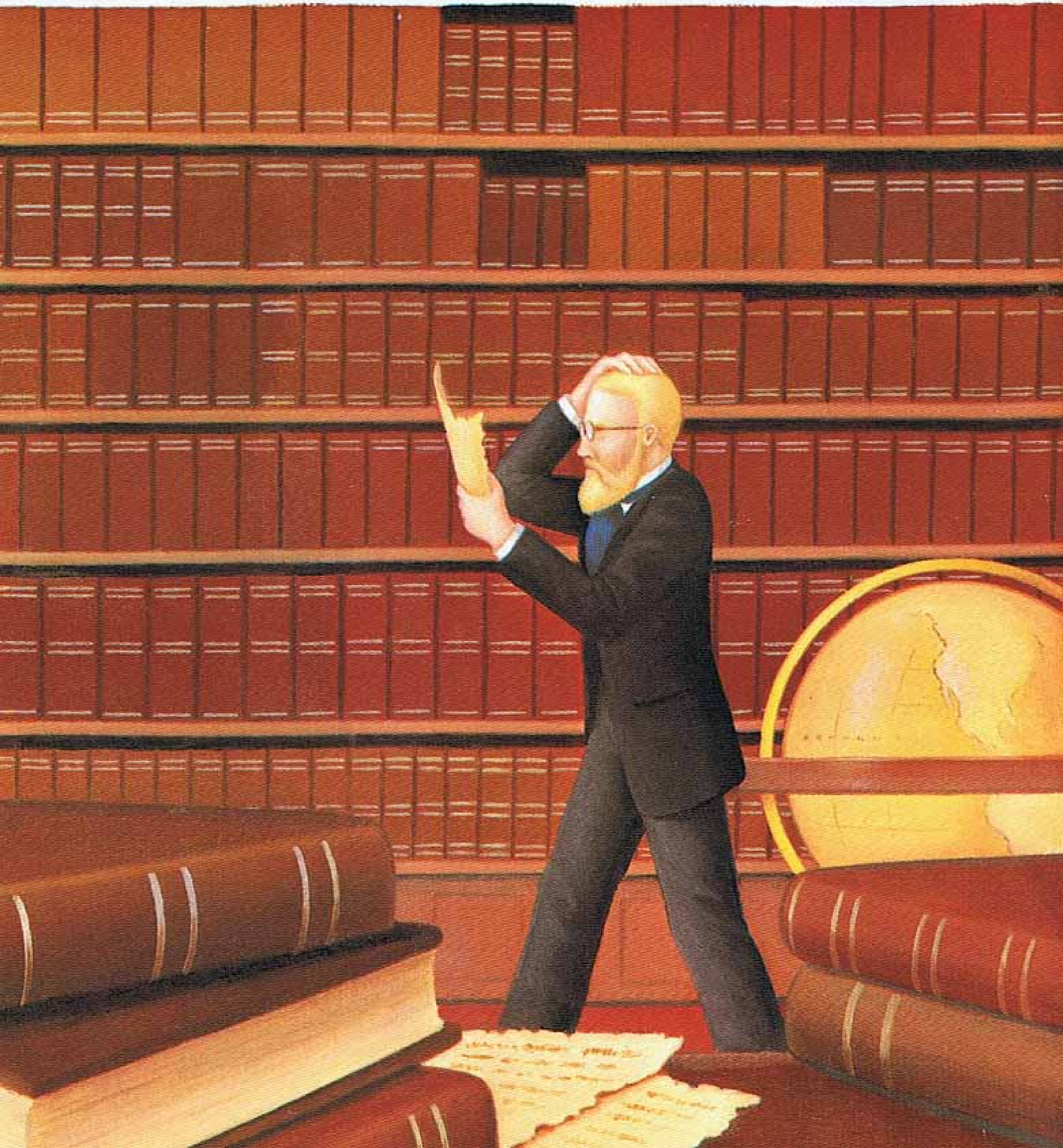
لَمْ أَكُنْ قادِرًا عَلى إجابَتِهِ بِالطَّبْعِ، وحَتّى إنَّني لَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ النَّظَرِ إلى الوَرَقَةِ. وعَلى كُلِّ حالٍ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ يَسْأَلُني! وكُنْتُ مُعْتادًا عَلى سَماعِ عَمّي يُخاطِبُ نَفْسَهُ هٰكَذا.

وهٰذِهِ هِيَ إحْدى عاداتِهِ الغَريبَةِ الّتي أَعْطَتْ مُحاضَراتِهِ في الجامِعَةِ تِلْكَ الشُّهْرَةَ.

في الواقِعِ، كانَتْ غَرائِبُ أَطْوارِ عَمّي البروفسورِ مِنْ مُمَيِّزاتِ مُحاضَراتِهِ، فَكانَ طُلّابُ الجامِعَةِ يَحْتَشِدونَ لِسَماعِ تِلْكَ المُحاضَراتِ. ومِنَ الإنْصافِ القَوْلُ إنَّهُ كانَ أَيْضًا مَرْجِعًا عِلْمِيًّا فَذًّا في أُمورِ الجيولوجيا. وكانَ كِبارُ العُلَماءِ يَزورونَهُ لِيَتَزَوَّدوا مِنْ عِلْمِهِ الغَزيرِ الّذي مَكَّنَهُ مِنَ القِيامِ بِاكْتِشافاتٍ عِلْمِيَّةٍ هامَّةٍ.

كانَ يُعامِلُني بِلُطْفٍ، ولٰكِنْ عَلى طَريقَتِهِ الخاصَّةِ. وكُنْتُ أَنا أَيْضًا شَغوفًا بِالجيولوجيا، فَما أَحْسَسْتُ يَوْمًا بِالوَحْدَةِ وأَنا بِصُحْبَةِ الأَحْجارِ والصُّخورِ. وبَعْدَ مَوْتِ والِدَيَّ، انْتَقَلْتُ لِلْعَيْشِ مَعَ عَمّي، وكُنْتُ مَحْظوظًا إذْ أُتيحَتْ لي فُرْصَةُ مُساعَدَتِهِ في عَمَلِهِ.

رَأَيْتُ عَمّي البروفسورَ يَروحُ ويَجيءُ في الغُرْفَةِ، وهُوَ يَتَفَحَّصُ الوَرَقَةَ، مُحاوِلًا إيجادَ دَليلٍ يُرْشِدُهُ إلى فَكِّ رُموزِها. كانَ رَجُلًا طَويلًا ونَحيلًا، مُفعَمًا بالنَّشاطِ. أَخَذَ عَمّي يُسْرِعُ ويُوَسِّعُ خُطْواتِهِ، فَقَدْ كانَ إنْسانًا قَليلَ الصَّبْرِ، يُحِبُّ أَنْ يُنْجِزَ أُمورَهُ بِسُرْعَةٍ.





زَعَقَ عَمّي فَجْأَةً : «لَقَدْ كُتِبَتِ الوَرَقَةُ بِشَكْلِ لُغْزٍ ، يَقومُ عَلى فَكِّ حُروفِ الكَلِماتِ. وعَلَيْنا ، لِنَفْهَمَ المَعْنى ، أَنْ نُعيدَ تَرْتيبَ هٰذِهِ الكَلِماتِ. إِنَّني مُصَمِّمٌ عَلى حَلِّ هٰذا اللُّغْزِ. لَنْ آكُلَ ولَنْ أَنامَ حَتّى أَتَمَكَّنَ مِنْ قِراءَةِ هٰذِهِ الوَرَقَةِ.»

شَعَرْتُ بِالقَلَقِ، لِعِلْمي أَنَّهُ عِنْدَما يَكونُ عَمّي في مِثْلِ هٰذِهِ الحالَةِ فَإِنَّهُ – بِالفِعْلِ – يَعْني ما يَقولُ، فَهُوَ لَنْ يَأْكُلَ ولَنْ يَدَعَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ البَيْتِ يَأْكُلُ قَبْلَ أَنْ يُشْبِعَ نَهَمَ فُضولِهِ. لِذٰلِكَ لازَمْتُهُ مُتَرَقِّبًا، وكُلّي أَمَلٌ بِأَنْ يَجِدَ الحَلَّ قَبْلَ مَوْعِدِ العَشاءِ.

تَساءَلَ البروفسورُ: «مَنْ كَتَبَ هٰذِهِ الكَلِماتِ يا تُرى؟ هُوَ – مِنْ دونِ شَكٍّ – شَخْصٌ مَلَكَ هٰذا الكِتابَ فيما مَضى.» ثُمَّ أَخَذَ يَتَأَمَّلُ صَفَحاتِ الكِتابِ بِدِقَّةٍ. وفَجْأَةً، أَشارَ إِلى عَلامَةٍ صَغيرَةٍ بَدَتْ لي كَلَطْخَةِ حِبْرٍ، وقالَ: «إِنَّهُ أَرْني سَكْنوسِم، العالِمُ الأَيسلَنْدِيُّ الشَّهيرُ الَّذي عاشَ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِمئَةِ سَنَةٍ.» ودَلَّني عَلى حَرْفَيْنِ باهِتَيْنِ بِاللُّغَةِ الأَيسلَنْدِيَّةِ القَديمَةِ وهُوَ يَصيحُ: «أُنْظُرْ: أ. س.»

البروفسورُ يَقَعُ في حَيْرَةٍ

عادَ البروفسورُ إِلى الوَرَقَةِ صامِتًا، وأَخَذَ يَتَأَمَّلُها بِعِنايَةٍ وإِمْعانٍ، فَخِلْتُ أَنَّهُ وَجَدَ مِفْتاحَ الحَلِّ، وانْتَظَرْتُ أَنْ يَقْرَأَ عَمّي كَلِماتِ سَكْنوسِم بِشَكْلٍ صَريحٍ.

ثُمَّ فوجِئْتُ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ، وإِنَّما ضَرَبَ الطّاوِلَةَ بِقَبْضَةِ يَدِهِ وهُوَ يَقولُ: «لا، غَيْرُ مَعْقولٍ! فَهٰذا لَيْسَ لَهُ مَعْنًى»، واسْتَدارَ مُقَطِّبًا حاجِبَيْهِ، وخَرَجَ مِنَ الغُرْفَةِ مُهَرْوِلًا، وهَبَطَ دَرَجاتِ السُّلَّمِ بِلَحْظَةٍ، وانْطَلَقَ نَحْوَ الطَّريقِ بِأَقْصى سُرْعَتِهِ.

أَغْلَقَ البابَ وَراءَهُ بِعُنْفٍ شَديدٍ هَزَّ البَيْتَ كُلَّهُ، فَجاءَتْ مَرْتا لِتَسْتَطْلِعَ الأَمْرَ، وسَأَلَتْني: «هَلْ ذَهَبَ؟»

فَأَجَبْتُ: «نَعَمْ، ذَهَبَ مِنْ دونِ أَنْ يَتَناوَلَ عَشاءَهُ.»

فَقالَتْ مَرْتا: «لِلأَسَفِ، لَنْ يَتَناوَلَ أَحَدٌ مِنّا عَشاءَهُ». وعادَتْ إِلى المَطْبَخِ وقَدِ ارْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِها أَماراتُ التَّعاسَةِ، فَهِيَ في خِدْمَةِ عَمّي مُنْذُ مُدَّةٍ طَويلَةٍ وتَعْرِفُ عاداتِهِ وطِباعَهُ.

كَيْفَ قَرَأْتُ الوَرَقَةَ

بَعْدَ خُروجِ مَرْتا مِنَ الغُرْفَةِ تناوَلْتُ الوَرَقَةَ ، وأَخَذْتُ أُحاوِلُ تَرْتيبَ الحُروفِ بِشَكْلٍ يَجْعَلُها تُؤَلِّفُ كَلِماتٍ . كانَتِ المُحاوَلَةُ فاشِلَةً فَاضْطُرِرْتُ إلى الاسْتِسْلامِ يائِسًا بَعْدَ بِضْعِ دَقائِقَ . ثُمَّ شَعَرْتُ بِحَرٍّ شَديدٍ مُزْعِجٍ ، وبَدا أَنَّ جَوَّ الغُرْفَةِ خانِقٌ . فَالْتَقَطْتُ الوَرَقَةَ وأَخَذْتُ أُحَرِّكُها كَمِرْوَحَةٍ أَمامَ وَجْهي . كانَ وَجْهُ الوَرَقَةِ وظَهْرُها يَمُرّانِ أَمامي بِسُرْعَةٍ ، وقَدْ بَدا لي أَنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَقْرَأَ كَلِماتٍ لاتينِيَّةً واضِحَةً : (Creterem... Terrestre).

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَصابَني الذُّهولُ والاضْطِرابُ . لَقَدْ وَجَدْتُ الطَّريقَةَ ! اِسْتَجْمَعْتُ أَنْفاسي وقَرَأْتُ الرِّسالَةَ كامِلَةً بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ .

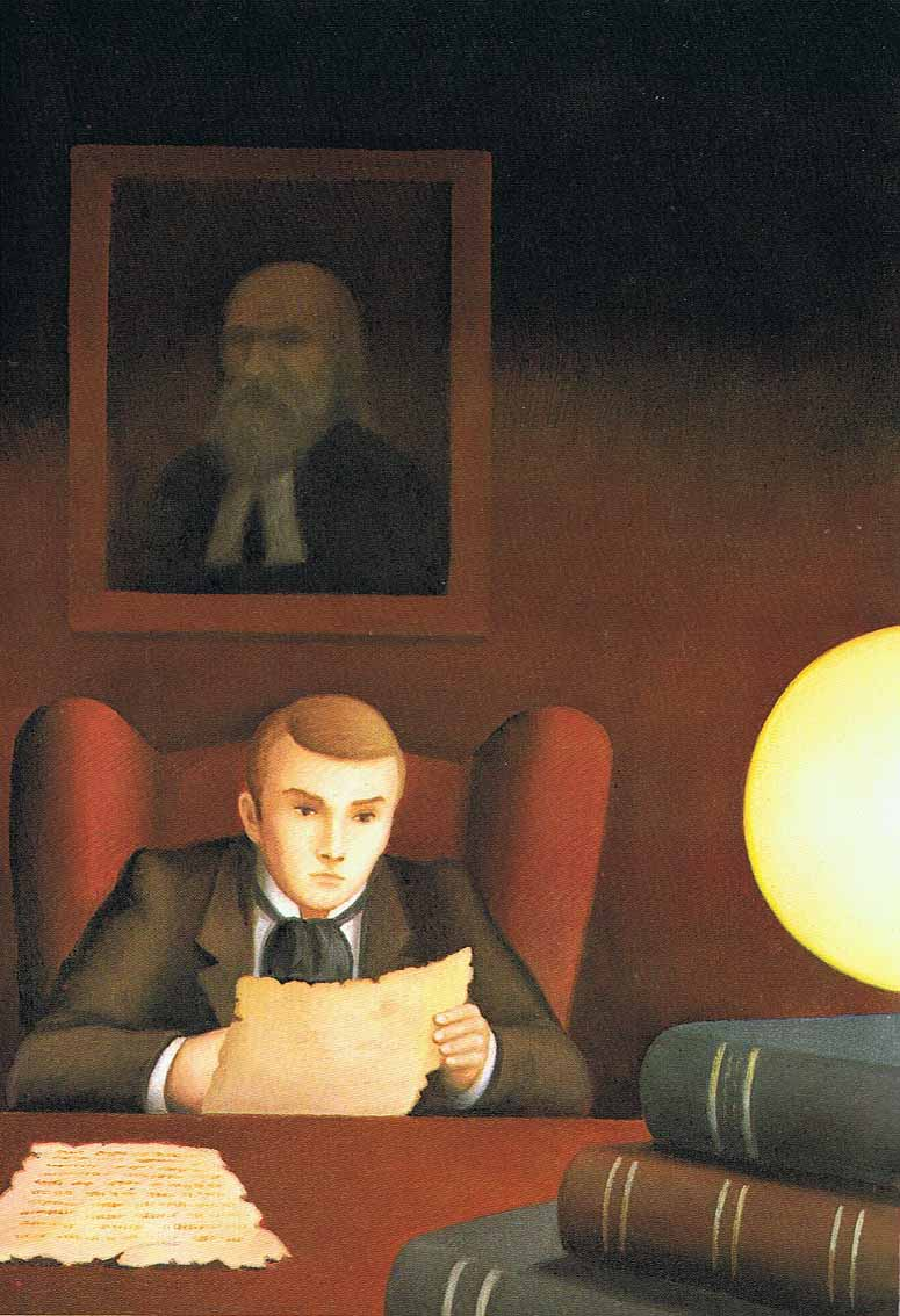
ثُمَّ جَمُدْتُ في مَكاني وقَدْ تَمَلَّكَني الرُّعْبُ مِمّا اكْتَشَفْتُ . فَهَلْ هٰذا مَعْقولٌ؟ وهَلْ وُجِدَ إِنْسانٌ يَمْلِكُ الشَّجاعَةَ الكافِيَةَ لِيَفْعَلَ هٰذا؟ قَرَأْتُ الرِّسالَةَ ثانِيَةً آمِلًا أَنْ أَكونَ قَدْ أَخْطَأْتُ في قِراءَتي الأُولى . ولٰكِنَّ النَّتيجَةَ جاءَتْ لِتُؤَكِّدَ ما قَرَأْتُهُ في المَرَّةِ الأُولى ، وهُوَ ما تَرْجَمْتُهُ :

[أَيُّها الرَّحّالَةُ الشُّجاعُ ، ادْخُلْ فُوَّهَةَ «سْنيفِلْز» مِنَ المَنْفَذِ الَّذي يَقَعُ عَلَيْهِ ظِلُّ «سْكارْتارِسْ» قَبْلَ شَهْرِ تَمّوزَ (يوليو) ، وسَوْفَ تَصِلُ إلى وَسَطِ باطِنِ الأَرْضِ . وهٰذا ما فَعَلْتُهُ أَنا .

أ . س .]

سَيْطَرَ عَلَيَّ الهَمُّ والقَلَقُ ، فَقَدْ يُصَمِّمُ عَمّي عَلى تَنْفيذِ هٰذِهِ التَّعْليماتِ خِدْمَةً لِلْعِلْمِ ! وهٰذا يَعْني القِيامَ بِرِحْلَةٍ تَحُفُّها الأَخْطارُ . لِذٰلِكَ قَرَّرْتُ السُّكوتَ وعَدَمَ كَشْفِ الأَمْرِ ، حَتّى لا تَنْقَلِبَ حَياتُنا رَأْسًا عَلى عَقِبٍ .

نامَ الجَميعُ ، تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، مِنْ دونِ تَناوُلِ العَشاءِ . فَقَدْ كانَ عَمّي مُتَكَدِّرَ المِزاجِ ، ولَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلى ذِكْرِ هٰذا الأَمْرِ المادِّيِّ التّافِهِ أَمامَ ذٰلِكَ الرَّجُلِ المُنْشَغِلِ بِأُمورِ العِلْمِ وحَقائِقِهِ .





عَمّي يُصابُ بِالذُّهولِ

دَخَلْتُ غُرْفَةَ المَكْتَبِ في الصَّباحِ لِأَجِدَ عَمّي هُناكَ. وَقَدْ تَأَكَّدْتُ – مِنْ شُحوبِ وَجْهِهِ واحْمِرارِ عَيْنَيْهِ – أَنَّهُ قَضى اللَّيْلَةَ ساهِرًا. لَمْ يَكُنْ قَدْ وَجَدَ سِرَّ وَرَقَةِ سَكْنوسِم. وهٰذا ما جَعَلَهُ يَنْظُرُ إِلَيَّ نَظْرَةً مِلْؤُها الأَسى. فَرَثَيْتُ لِحالِهِ وأَخَذْتُ أُسائِلُ نَفْسي: «هَلْ أَنا مُصيبٌ في إِخْفائي أَمْرَ اكْتِشافي لِلسِّرِّ؟ أَجَلْ، أَجَلْ. وإِلّا فإِنَّهُ سَيَقومُ حَتْمًا بِهٰذِهِ الرِّحْلَةِ الغَريبَةِ. ولٰكِنْ إِذا تَوَصَّلَ بِنَفْسِهِ إِلى طَريقَةِ قِراءَةِ الوَرَقَةِ نَكونُ قَدْ حُرِمْنا الطَّعامَ بِلا فائِدَةٍ.» ثُمَّ إِنَّني كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الحَذَرَ قَدْ يَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَرْمِيَ بِنَفْسِهِ في هٰذِهِ المُخاطَرَةِ.

سَأَلْتُهُ: «هَلْ تَوَصَّلْتَ، يا عَمّي، إِلى أَيِّ شَيْءٍ يُساعِدُ عَلى فَكِّ هٰذِهِ الرُّموزِ؟»

نَظَرَ إِلَيَّ بِانْفِعالٍ وأَجابَ بِالنَّفْيِ، فَقُلْتُ: «أَعْتَقِدُ أَنَّ لَدَيَّ الجَوابَ، وقَدْ وُفِّقْتُ إِلَيْهِ عَرَضًا.»



بَدَأْتُ بِشَرْحِ الرِّسالَةِ. ولٰكِنَّ البروفسورَ أَطْلَقَ صَرْخَةً حادَّةً قَبْلَ أَنْ أُنْهِيَ كَلامي. لَقَدْ عَرَفَ أَخيرًا ما في الوَرَقَةِ، فَانْفَرَجَتْ أَساريرُهُ وأَشْرَقَتْ عَيْناهُ ودَبَّ فيهِ النَّشاطُ، وسَمِعْتُهُ يَقولُ: «أَرْني سَكْنوسِم، يا لَكَ مِنْ عالِمٍ!»

ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الغُرْفَةِ وهُوَ يَقولُ لي: «أَحْضِرْ لي حَقيبَتي الكَبيرَةَ، ووَضِّبْ حَقيبَتَكَ أَنْتَ أَيْضًا.»

المُغامَرَةُ الجُنونِيَّةُ

كانَ العَشاءُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ دَسِمًا جِدًّا، فَقَدْ أَعْلَنَ عَمّي خُطَّتَهُ لِلقِيامِ بِالرِّحْلَةِ الأُسْطورِيَّةِ الَّتي يَزْعُمُ سَكْنوسِم أَنَّهُ قامَ بِها مُنْذُ عِدَّةِ قُرونٍ.

وكادَتِ الهَواجِسُ تَفْتَرِسُني وأَخْبَرْتُ عَمّي بِمَخاوِفي، ولٰكِنَّهُ كانَ مُصَمِّمًا، فَتابَعَ شَرْحَهُ بِحَماسٍ بالِغٍ قائِلًا:

«اسْمَعْ يا أَكْسِل. سْنيفِلْز هُوَ جَبَلٌ بُرْكانِيٌّ يَقَعُ قُرْبَ السّاحِلِ الغَرْبيِّ لِأَيسلَنْدا، شَماليَّ العاصِمَةِ ريكياڤيك. وسْكارْتارِسْ هِيَ إحْدى قِمَمِ هٰذا الجَبَلِ. ولِفُوَّهَةِ بُرْكانِ سْنيفِلْز عِدَّةُ فُتُحاتٍ. وقَدْ رَأَى العالِمُ سَكْنوسِم أَنْ يُشيرَ إلى الفُتْحَةِ الَّتي تَقودُ إلى قَلْبِ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ. وهِيَ – بِحَسَبِ وَصْفِهِ – الفُتْحَةُ الَّتي يَقَعُ عَلَيْها ظِلُّ سْكارْتارِسْ في آخِرِ شَهْرِ حَزيرانَ (يونيو)...»

قاطَعْتُهُ قائِلًا: «ولٰكِنَّ الحَقائِقَ العِلْمِيَّةَ – يا عَمّي – تُشيرُ إلى أَنَّ هٰذِهِ الرِّحْلَةَ مُسْتَحيلَةٌ!»

فَسَأَلَني مُسْتَغْرِبًا: «ولِماذا؟»

– إنَّهُ بُرْكانٌ! إنْ دَخَلْنا فُوَّهَتَهُ فَلَنْ نَتَحَمَّلَ الحَرارَةَ. ثُمَّ إنَّهُ سَيَكون مَليئًا بِالحُمَمِ.

– يا مِسْكينُ، إنَّكَ تَخْشى أَنْ تَذوبَ!

وبَعْدَ أَنْ قَهْقَهَ نَظَرَ إلَيَّ بِابْتِسامَةٍ ساخِرَةٍ وقالَ: «سَأَشْرَحُ لَكَ شَيْئًا هامًّا: إنَّ طَبيعَةَ قَلْبِ الأَرْضِ ما زالَتْ تُحَيِّرُ العُلَماءَ. ويَعْتَقِدُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ حارٌّ، ولٰكِنَّهُمْ لَمْ يُبَرْهِنوا ذٰلِكَ. وأَنا أَرَى أَنَّ جَوْفَ الأَرْضِ لَيْسَ حارًّا، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ كَذٰلِكَ. وهٰذِهِ هِيَ فُرْصَتُنا لِلتَّأَكُّدِ مِنْ ذٰلِكَ، ولَمْسِهِ حِسِّيًّا.»

مَعَ أَنَّني اعْتَقَدْتُ، بادِئَ الأَمْرِ، أَنَّ البروفسورَ فَقَدَ عَقْلَهُ، فَقَدِ انْتَقَلَتْ إلَيَّ عَدْوى الفُضولِ والانْدِفاعِ. ودارَتْ في رَأْسي التَّوَقُّعاتُ المُثيرَةُ لِهٰذِهِ التَّجْرِبَةِ الفَريدَةِ. وقَدْ أَفاقَني مِنْ هٰذِهِ الأَفْكارِ صَوْتُ البروفسور وهُوَ يُحَذِّرُني: «إيّاكَ أَنْ تُخْبِرَ أَحَدًا بِمَشْروعِنا. لا أُريدُ أَنْ يَسْبِقَنا أَحَدٌ إلى اكْتِشافِ قَلْبِ الأَرْضِ.»

فَسَأَلْتُهُ لِأُبَدِّدَ شُكوكي: «هَلْ نَحْنُ ذاهِبونَ حَقًّا؟» وجاءَ جَوابُهُ حاسِمًا: «بِالطَّبْعِ يا عَزيزي. سَنُسافِرُ بَعْدَ غَدٍ لِنَتَمَكَّنَ مِنَ الوُصولِ إلى سْنيفِلْز قَبْلَ نِهايَةِ حَزيرانَ (يونيو). إنَّنا الآنَ في السّادِسِ والعِشْرينَ مِنْ أَيّار (مايو) وإنْ تَأَخَّرْنا فَسَيَكونُ عَلَيْنا الانْتِظارُ حَتّى العامِ القادِمِ.»



الاسْتِعْدادُ لِلرِّحْلَةِ

اِنْهمَكْنا ، في اليَوْمِ التّالي ، في التَّحْضيرِ لِلرِّحْلَةِ. وقَدْ وَصَلَتْ إلى البَيْتِ دُفُعاتٌ مِنَ الأَعْتِدَةِ كَالبَنادِقِ والأَدَواتِ والأَجْهِزَةِ العِلْمِيَّةِ المُتَنَوِّعَةِ.

لَمْ تَفْهَمِ المِسْكينَةُ مَرْتا شَيْئًا مِمّا يَجْري ، وتَجَرَّأَتْ عَلى سُؤالي : «هَلْ جُنَّ سَيِّدي؟» فَأَوْمَأْتُ لَها بِرَأْسي عَلامَةَ الإيجابِ، ثُمَّ أَرْدَفَتْ : «وهَلْ سَيَرْحَلُ ويَأْخُذُكَ مَعَهُ؟» فَحَرَّكْتُ رَأْسي نُزولًا مَرَّةً ثانِيَةً ، وتابَعَتْ : «إلى أَيْنَ؟» فَأَشَرْتُ لَها بِإِصْبَعي نَحْوَ الأَرْضِ ، فَاسْتَفْهَمَتْ بِاسْتِغْرابٍ : «هَلْ تَذْهَبانِ إلى المَطْبَخِ في الدَّوْرِ السُّفْلِيِّ؟». عِنْدَها نَطَقْتُ وقُلْتُ لَها : «كَلّا. بَلْ إلى ما هُوَ أَعْمَقُ مِنْ ذٰلِكَ!»

أَكْمَلْنا الاسْتِعْدادَ خِلالَ يَوْمَيْنِ مِنَ العَمَلِ الشّاقِّ، وغادَرْنا هامْبورْغ صَباحَ الثّامِنِ والعِشْرينَ مِنْ أَيّارَ (مايو).

بَدْءُ الرِّحْلَةِ

سافَرْنا مِنْ هامْبورْغ بَرًّا ثُمَّ بَحْرًا إلى أَنْ رَسَتْ سَفينَتُنا في ميناءِ ريكياڤيك في أيسلَنْدا. ومَعَ أَنَّ عَمّي كانَ شاحِبًا مِنَ التَّعَبِ الَّذي أَصابَهُ خِلالَ السَّفَرِ ، فَإِنَّهُ بَدا مُتَحَمِّسًا وراضِيًا.

أَبْدَيْتُ رَغْبَةً في رُؤْيَةِ مَعالِمِ مَدينَةِ ريكياڤيك ، ولٰكِنَّ عَمّي رَفَضَ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : لا .. لا ، فَعَلَيْنا العَمَلُ بِسُرْعَةٍ لِلْوُصولِ إلى سْنيفِلْز. بِالإِضافَةِ إلى أَنَّ أَجْمَلَ ما في أيسلَنْدا لَيْسَ أَرْضَها ، بَلْ ما هُوَ تَحْتَ أَرْضِها.

لَمْ أُناقِشْ عَمّي في هٰذا المَوْضوعِ ، لِيَقيني أَنَّني لَنْ أَصِلَ مَعَهُ إلى نَتيجَةٍ ، لِذٰلِكَ اتَّجَهْنا رَأْسًا إلى مَنْزِلِ الأُسْتاذِ فريدرِكْسون ، وهُوَ مُدَرِّسٌ لِلْعُلومِ سَنَنْزِلُ عِنْدَهُ بِضْعَةَ أَيّامٍ.

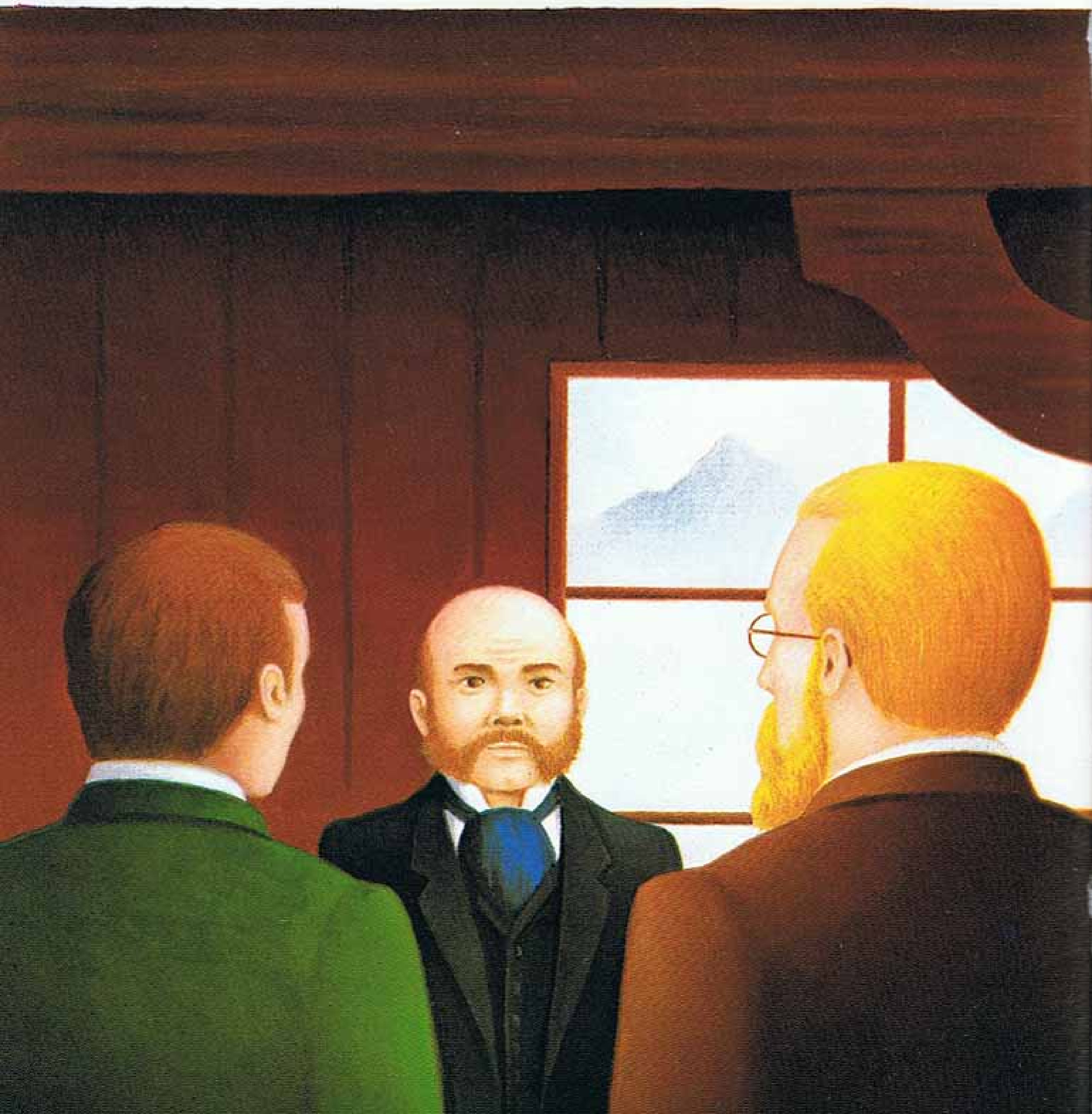
أَخْبَرَ البِروفِسورُ الأُسْتاذَ فريدرِكْسون أَنَّنا سَنَقومُ بِدِراسَةٍ جيولوجِيَّةٍ لِأيسلَنْدا ، وقَدْ سَرَّهُ ذٰلِكَ كَثيرًا ورَحَّبَ بِهٰذِهِ الفِكْرَةِ ، وأَخْبَرَنا أَنَّ هُناكَ الكَثيرَ مِنَ الجِبالِ والبَراكينِ ، في

أيسلَنْدا ، بِحاجَةٍ إلى دِراسَةٍ . وأَضافَ : «ذاكَ الجَبَلُ الّذي تَرَوْنَهُ هُناكَ واحِدٌ مِنْها ، وهُوَ يُدْعى سْنيفِلْز .»

أَخْفى عَمّي اهْتِمامَهُ البالِغَ ، فَطَرَحَ سُؤَالًا عادِيًّا : «هٰذا هُوَ اسْمُهُ ؟»

وتابَعَ فريدرِكْسون قائِلًا : «إِنَّهُ بُرْكانٌ هامٌّ ، وقَليلونَ هُمُ الّذينَ اسْتَكْشَفوهُ .»

فَسَأَلَهُ عَمّي : «لِماذا ؟ هَلْ هُوَ ثائِرٌ الآنَ ؟» وأَجابَ : «لا ، لا . إِنَّهُ خامِدٌ مُنْذُ خَمْسِمِئَةِ سَنَةٍ .»



دَليلُنا الأَيسلَنْدِيُّ

هٰذا الجَوابُ الأَخيرُ زادَ مِنْ حَماسِ عَمّي لِلإِسْراعِ في بَدْءِ الرِّحْلَةِ. فَطَلَبَ مِنَ السَّيِّدِ فريدِركْسون أَنْ يُحْضِرَ لَنا، في اليَوْمِ التّالي، رَجُلًا خَبيرًا لِيَكونَ دَليلَنا في رِحْلَتِنا إِلى سْنيفِلْز.

جاءَ الدَّليلُ في اليَوْمِ التّالي، وكانَ اسْمُهُ هانز بيلْكي، وقَدْ أُعْجِبْتُ بِهِ فَوْرًا إِذْ رَأَيْتُ فيهِ إِنْسانًا هادِئًا وواثِقًا مِنْ نَفْسِهِ. اِتَّفَقَ عَمّي وهانز على التَّرْتيباتِ المُتَعَلِّقَةِ بِالرِّحْلَةِ، على أَنْ يَبْدَأَ مَسيرُنا بَعْدَ يَوْمَيْنِ.

عِنْدَما غادَرَنا هانز قالَ لي البروفسورُ: «إِنَّه إِنْسانٌ طَيِّبٌ، ولٰكِنَّهُ لا يَدْري، بِالضَّبْطِ، إِلى أَيْنَ سَيَصِلُ مَعَنا في المُسْتَقْبَلِ القَريبِ.»

– أَتَعْني، يا عَمّي، أَنَّهُ سَيَذْهَبُ مَعَنا إِلى...

– أَجَلْ، يا أَكْسِل، إِلى جَوْفِ الأَرْضِ.

المَسيرَةُ الشّاقَّةُ

قَرَّرْنا أَنْ نَتَّجِهَ بَرًّا نَحْوَ سْنيفِلْز في الشَّمالِ، لِأَنَّ انْتِظارَ باخِرَةٍ قَدْ يَسْتَغْرِقُ وَقْتًا طَويلًا.

بَعْدَ يَوْمَيْنِ مُرْهِقَيْنِ مِنَ التَّحْضيرِ كُنّا جاهِزينَ لِلانْطِلاقِ في السّادِسَةِ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ السّادِسَ عَشَرَ مِنْ حَزيرانَ (يونيو): خَرَجْنا مِنْ ريكيافيك، وسَلَكْنا الخَطَّ السّاحِلِيَّ عَبْرَ حُقولٍ يَميلُ اخْضِرارُ نَباتِها إِلى الصُّفْرَةِ والذُّبولِ. وقَدْ بَدَتِ المِنْطَقَةُ مُوحِشَةً كَئيبَةً، فَأَرْضُها مُنْبَسِطَةٌ رَتيبَةٌ تُغَطّيها الصُّخورُ. وكُنّا نَرى بَعْضَ البُيوتِ الصَّغيرَةِ المُتَناثِرَةِ هُنا وهُناكَ. بَعْدَ ذٰلِكَ اخْتَفَتِ الأَعْشابُ والأَشْجارُ والبُيوتُ، ولَمْ نَعُدْ نَرى إِلّا أَرْضًا جَرْداءَ.



فِي التَّاسِعَ عَشَرَ مِنْ حَزِيرانَ (يونيو) قَدَّرْتُ أَنَّنا اقْتَرَبْنا مِنْ هَدَفِنا إِذْ مَرَرْنا بِمِنْطَقَةٍ مُمْتَدَّةٍ عَلَى مَسافَةِ مِيلٍ، تَتَكَوَّنُ صُخُورُها مِنْ حُمَمٍ بُرْكانِيَّةٍ قَدِيمَةٍ. كانَتِ الصُّخُورُ هُناكَ بارِزَةً، غَرِيبَةَ الأَشْكالِ، ذاتَ أَطْرافٍ حادَّةٍ، مِمّا أَعاقَ تَحَرُّكَنا. وفي بَعْضِ الأَماكِنِ، كانَتِ الأَبْخِرَةُ تَتَصاعَدُ مِنَ اليَنابِيعِ الحارَّةِ المُتَفَجِّرَةِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ.

تابَعْنا سَيْرَنا بِثَباتٍ، وأَحْسَسْتُ بِالإِعْياءِ. لٰكِنَّ عَمّي لَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ التَّعَبُ، ولَمْ يُرِدِ التَّوَقُّفَ لِلرّاحَةِ. أَمّا هانز فَقَدِ اعْتَبَرَ هٰذِهِ الرِّحْلَةَ الشّاقَّةَ بِمَثابَةِ نُزْهَةٍ.

تَوَقَّفْنا عَنِ المَسِيرِ فِي اليَوْمِ الرّابِعِ، وقَرَّرْنا المَبِيتَ فِي القَرْيَةِ الواقِعَةِ عِنْدَ أَسْفَلِ سَفْحِ سْنيفِلْز. وهُنا أَدْرَكْتُ فَجْأَةً كَمْ كُنّا قَرِيبِينَ مِنَ الأَخْطارِ الَّتِي تَنْتَظِرُنا. فَما هُوَ مَصِيرُنا إِذا تَحَرَّكَ البُرْكانُ فَجْأَةً ونَحْنُ بِداخِلِ فُوَّهَتِهِ؟ هَلْ هُناكَ بُرْهانٌ أَكِيدٌ عَلَى أَنَّ سْنيفِلْز لَمْ يَعُدْ نَشِطًا؟ صَحِيحٌ أَنَّ البُرْكانَ خامِدٌ مُنْذُ السَّنَةِ ١٢٢٩، ولٰكِنْ أَلا يُمْكِنُ أَنْ يَنْفَجِرَ ثانِيَةً فِي أَيِّ وَقْتٍ؟؟

بَرِمَ عَمّي البروفسورُ بي وبِتَساؤُلاتي، وأَكَّدَ لي أَنَّ مَخاوِفي لَيْسَتْ في مَحَلِّها. وقَدْ خَلَدْنا إِلَى النَّوْمِ باكِرًا تِلْكَ اللَّيْلَةَ عَلَى أَمَلِ اسْتِئْنافِ تَحَرُّكِنا باكِرًا فِي اليَوْمِ التّالي. ولٰكِنِّي أَمْضَيْتُ لَيْلَةً شاقَّةً، إِذْ رَأَيْتُ نَفْسي، فِي المَنامِ، وَسَطَ بُرْكانٍ تَحْتَ الأَرْضِ، ثُمَّ قُذِفْتُ بَغْتَةً إِلَى السَّماءِ عِنْدَما انْفَجَرَ البُرْكانُ انْفِجارًا رَهِيبًا.

عِنْدَ فُوَّهَةِ البُرْكانِ

فِي اليَوْمِ التّالي، تَسَلَّقْنا سَفْحَ الجَبَلِ طُولَ النَّهارِ، وكُنّا نَشْعُرُ أَنَّ ضَغْطَ الهَواءِ يَزْدادُ كُلَّما ارْتَفَعْنا، مِمّا سَبَّبَ لَنا ضِيقًا فِي التَّنَفُّسِ وزادَنا إِجْهادًا.

لَمْ نَصِلِ القِمَّةَ إِلّا فِي الحادِيَةَ عَشْرَةَ لَيْلًا، وأَقَمْنا مُخَيَّمًا هُناكَ عَلَى ارْتِفاعِ خَمْسَةِ آلافِ قَدَمٍ فَوْقَ سَطْحِ البَحْرِ.



أَفَقْنا صَباحًا ، وكانَتِ الحَرارَةُ مُتَدَنِّيَةً والجَوُّ صافِيًا جدًّا . فَرَأَيْنا الجَزيرَةَ كُلَّها وقَدِ انْبَسَطَتْ أَمامَنا كَأَنَّها خَريطَةٌ كُبْرى . فَسَأَلَ عَمّي عَنِ اسْمِ القِمَّةِ الَّتي كُنّا عَلَيْها ، وجاءَهُ جَوابُ هانز مُرْضِيًا ، إِذْ كانَتْ قِمَّةَ سْكارْتارِسْ الَّتي وَرَدَ ذِكْرُها في تَعْليماتِ سَكْنوسِم .

قَرَّرَ عَمّي فَوْرًا الانْحِدارَ نَحْوَ أَسْفَلِ المَخْروطِ البُرْكانِيِّ . وَعِنْدَما وَصَلْنا إِلى هُناكَ ظُهْرًا وَجَدْنا ثَلاثَ فُتْحاتٍ كانَتْ قَديمًا مَنافِذَ جانِبِيَّةً لِقَذْفِ حُمَمِ البُرْكانِ وَأَبْخِرَتِهِ . وكانَ قُطْرُ كُلِّ فُتْحَةٍ حَوالَى مِئَةِ قَدَمٍ .

بادَرَ البروفسورُ ليدِنْبُرْك إِلى مُعايَنَةِ الفُتْحاتِ ، وَأَطْلَقَ فَجْأَةً صَرْخَةً حادَّةً خِلْتُ مَعَها أَنَّهُ هَوى في إِحْداها . نَظَرْتُ فَإِذا هُوَ واقِفٌ مَبْهوتًا بِلا حَراكٍ . ثُمَّ ناداني قائِلًا : «تَعالَ بِسُرْعَةٍ يا أَكْسِل» .

ذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَرَأَيْتُ ذلِكَ الاسْمَ اللَّعينَ ، سَبَبَ كُلِّ مَتاعِبي ، مَحْفورًا عَلى صَخْرَةٍ .

أَشارَ عَمّي بِيَدِهِ مَزْهُوًّا وهو يُخاطِبُني : «أُنْظُرْ واقْرَأْ : أَرْني سَكْنوسِم . هَلْ زالَتْ شُكوكُكَ الآنَ؟»

بِانْتِظارِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ

كانَ عَلَيْنا أَنْ نُحَدِّدَ المَنْفَذَ المُؤَدِّيَ إِلى جَوْفِ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ ، وهُوَ الَّذي يَقَعُ عَلَيْهِ ظِلُّ سْكارْتارِسْ في أَواخِرِ شَهْرِ حَزيرانَ (يونيو) . ولٰكِنَّ الوَقْتَ كانَ عَصْرًا ، وعَلَيْنا الانْتِظارُ حَتّى اليَوْمِ التّالي .

اسْتَيْقَظْتُ صَباحًا لِأَجِدَ عَمّي مُضْطَرِبَ المِزاجِ . فَالسَّماءُ كانَتْ رَمادِيَّةً داكِنَةً ، ومِنْ دونِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ السّاطِعَةِ لَنْ نَعْرِفَ المَسْلَكَ الصَّحيحَ . كُنّا في الخامِسِ والعِشْرينَ مِنْ حَزيرانَ (يونيو) ، وإِذا ظَلَّتِ السَّماءُ غائِمَةً في الأَيّامِ القَليلَةِ الباقِيَةِ مِنْ ذٰلِكَ الشَّهْرِ ، فَسَيَتَعَيَّنُ عَلَيْنا الانْتِظارُ حَتّى السَّنَةِ الآتِيَةِ .

غَدا عَمّي في الأَيّامِ التّالِيَةِ حانِقًا ، لا يَنْطِقُ بِكَلِمَةٍ ، ولا يَفْعَلُ شَيْئًا غَيْرَ مُواصَلَةِ التَّحْديقِ في السَّماءِ المُلَبَّدَةِ بِالغُيومِ ، وقَدْ بَدَأَ الشَّهْرُ يَقْتَرِبُ مِنْ نِهايَتِهِ الرَّمادِيَّةِ .



وأَخيرًا تَبَدَّلَ الطَّقسُ يَوْمَ الأَحَدِ في الثّامِنِ والعِشْرينَ مِنْ حَزيرانَ (يونيو) : فَقَدْ سَطَعَتِ الشَّمْسُ بِأَشِعَّتِها عَلى كُلِّ التِّلالِ والصُّخورِ والحِجارَةِ، وأَلْقَتْ هٰذِهِ جَميعًا ظِلالَها عَلى الأَرْضِ. وَقَعَ ظِلُّ سْكارْتارِسْ عَلى الفُتْحَةِ الوُسْطى، فَهَبَّ عَمّي مُتَهَلِّلاً : «ذاكَ هُوَ الظِّلُّ. أُنْظُرْ.. اَلْآنَ تَبْدَأُ رِحْلَتُنا الحَقيقيَّةُ.»



هَيَّأْنا أَنْفُسَنا لِلنُّزولِ في تِلْكَ الحُفْرَةِ المُرَوِّعَةِ، وأَخَذْتُ أَشْعُرُ بِالخَجَلِ مِنْ نَفْسي عِنْدَما لاحَظْتُ انْدِفاعَ هانز وحَماسَهُ. لَقَدْ بَدا جَريئًا لا يَهابُ شَيْئًا، ولا يَخْشى خَطَرًا. فَكَيْفَ أَرْضى لِنَفْسي أَنْ أَبْدُوَ جَبانًا أَمامَهُ؟؟

النُّزولُ تَحْتَ الأَرْضِ

كانَتْ جَوانِبُ المَنْفَذِ مُنْحَدِرَةً بِشَكْلٍ عَموديٍّ، ولٰكِنَّها غَيْرُ مَلْساءَ، إِذْ كانَتْ مَليئَةً بِالصُّخورِ النّاتِئَةِ وكَأَنَّها دَرَجاتٌ لِلنُّزولِ. قَسَّمْنا العُدَّةَ والمُؤَنَ فيما بَيْنَنا، ورَبَطْنا حَبْلًا طَويلًا إلى صَخْرَةٍ كَبيرَةٍ عِنْدَ فَمِ الفُتْحَةِ، وأَنْزَلْناهُ في الدّاخِلِ، وبَدَأْنا الانْحِدارَ واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ مُسْتَعينينَ بِالحَبْلِ.

لَمْ يَنْطِقْ أَحَدُنا بِكَلِمَةٍ، فَسادَ النَّفَقَ صَمْتٌ مُطْبِقٌ يَقْطَعُهُ، مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ، صَوْتُ بَعْضِ الحِجارَةِ الهابِطَةِ نَحْوَ الأَعْماقِ المَجْهولَةِ.

تابَعْنا النُّزولَ مُدَّةَ ثَلاثِ ساعاتٍ، ولَمْ نَصِلْ إلى أَيِّ أَرْضٍ أَوْ قَعْرٍ. ولَمّا رَفَعْتُ نَظَري رَأَيْتُ فُتْحَةَ المَنْفَذِ دائِرَةً صَغيرَةً، أَمّا تَحْتَنا فَكانَ الظَّلامُ البَهيمُ، ومَعَ ذٰلِكَ تابَعْنا الهُبوطَ.

حَوالَى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ وَصَلْنا إلى قَعْرِ ذاكَ المَنْفَذِ، أَوِ العُنُقِ البُرْكانِيِّ. كانَ التَّعَبُ قَدْ بَلَغَ بي مَبْلَغًا، وتَناوَلْتُ العَشاءَ وأَنا أُفَكِّرُ بِشَيْءٍ وَحيدٍ هُوَ النَّوْمُ.

أَمّا عَمّي فَبَدا نَشِطًا مُسْتَيْقِظًا، وأَصَرَّ عَلى اسْتِعْراضِ إِنْجازِ ذٰلِكَ اليَوْمِ غَيْرَ عابِئٍ بِحالَتي وحالَةِ هانز. قالَ: «لَقَدْ تَفَحَّصْتُ تَكْوينَ الصَّخْرِ، خِلالَ نُزولِنا، ووَجَدْتُ ما يَدْعَمُ نَظَرِيَّتي الَّتي تَسْتَبْعِدُ أَنْ يَكونَ جَوْفُ الأَرْضِ حارًّا.»

وبِما أَنَّني لَمْ أَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِأَيِّ نِقاشٍ مَعَ عَمّي، فَقَدْ أَجَبْتُهُ: «سَوْفَ نَرى، يا عَمّي، سَوْفَ نَرى»، واسْتَدَرْتُ عَلى جَنْبي وغَفَوْتُ في الحالِ.



اِسْتَيْقَظْنا في الصَّباحِ الباكِرِ على شُعاعٍ خافِتٍ مِنْ ضَوْءِ النَّهارِ نَزَلَ إلَيْنا قاطِعًا مَسافَةَ ثَلاثَةِ آلافِ قَدَمٍ مِنَ الفُتْحَةِ. تَناوَلْنا فُطورًا مُشْبِعًا تَحْضيرًا لِنَهارٍ كامِلٍ مِنَ السَّيْرِ. كانَ عِنْدَ يَمينِ قَعْرِ المَنْفَذِ مَمَرٌّ صَغيرٌ، فَدَخَلْنا مِنْهُ وانْطَلَقْنا.

ولٰكِنْ، قَبْلَ وُلوجِ المَمَرِّ المُعْتِمِ رَفَعْتُ ناظِرَيَّ إلى العَلاءِ، فَرَأَيْتُ، لآخِرِ مَرَّةٍ في حَياتي، شَيْئًا مِنْ سَماءِ أيسلَنْدا.

في أَنْفاقِ الحُمَمِ

لا بُدَّ أَنْ تَكونَ الحُمَمُ البُرْكانِيَّةُ قَدْ حَفَرَتْ هٰذا النَّفَقَ مَمَرًّا لَها عِنْدَما انْفَجَرَ هٰذا البُرْكانُ عامَ ١٢٢٩. كانَتْ جُدْرانُ النَّفَقِ مُغَطّاةً بِمادَّةٍ مَعْدِنِيَّةٍ لَمّاعَةٍ بَدَتْ بَديعَةَ المَنْظَرِ، فَهَتَفْتُ مُعْجَبًا: «يا لَلرَّوْعَةِ! إنَّها أَلْوانٌ مُدْهِشَةٌ، يا عَمّي». فَهَزَّ رَأْسَهُ وقالَ: «مَهْلًا يا بُنَيَّ، أنا واثِقٌ مِنْ أَنَّنا سَنَرى المَزيدَ مِنَ العَجائِبِ والرَّوائِعِ خِلالَ رِحْلَتِنا.»

نَزَلْنا، بِصُعوبَةٍ بالِغَةٍ، في المَمَرِّ الصَّخْرِيِّ الشَّديدِ الانْحِدارِ، مُهْتَدينَ بِنورِ مِصْباحٍ

قَوِيٍّ، يَحْمِلُهُ عَمّي. وَعِنْدَما تَوَقَّفْنا لَيْلًا وَجَدْنا أَنْفُسَنا في مَكانٍ أَشْبَهَ بِكَهْفٍ.

جَلَسْتُ هُناكَ، وانْتابَني إحْساسٌ غَريبٌ، إذْ خِلْتُ أَنَّني أَسْمَعُ صَوْتَ هُبوبِ ريحٍ. فَمِنْ أَيْنَ يَأْتي يا تُرى؟ ولٰكِنّي كُنْتُ مُتْعَبًا وجائِعًا، فَانْصَرَفَ ذِهْني عَنِ المَوْضوعِ، بالإضافَةِ إلى أَنَّ مَسْأَلَةً خَطيرَةً كانَتْ تَشْغَلُ بالي:

كُنّا قَدِ اسْتَهْلَكْنا نِصْفَ كَمِّيَّةِ الماءِ الَّتي أَحْضَرْناها مَعَنا. وكانَ عَمّي يَتَوَقَّعُ أَنْ نَمُرَّ بِيَنابيعَ جَوْفِيَّةٍ، ولٰكِنَّنا لَمْ نَجِدْ شَيْئًا مِنْ هٰذا. وقَدْ نَقَلْتُ إلَيْهِ قَلَقي هٰذا.

فَسَأَلَني: «هَلْ أَنْتَ قَلِقٌ، بالفِعْلِ، لِأَنَّنا لَمْ نَجِدْ أَيَّ يَنْبوعٍ؟»

– أَجَلْ. وما يَزيدُ اضْطِرابي هُوَ أَنَّ ما تَبَقّى لَدَيْنا مِنَ الماءِ يَكْفينا لِمُدَّةِ خَمْسَةِ أَيّامٍ فَقَطْ.

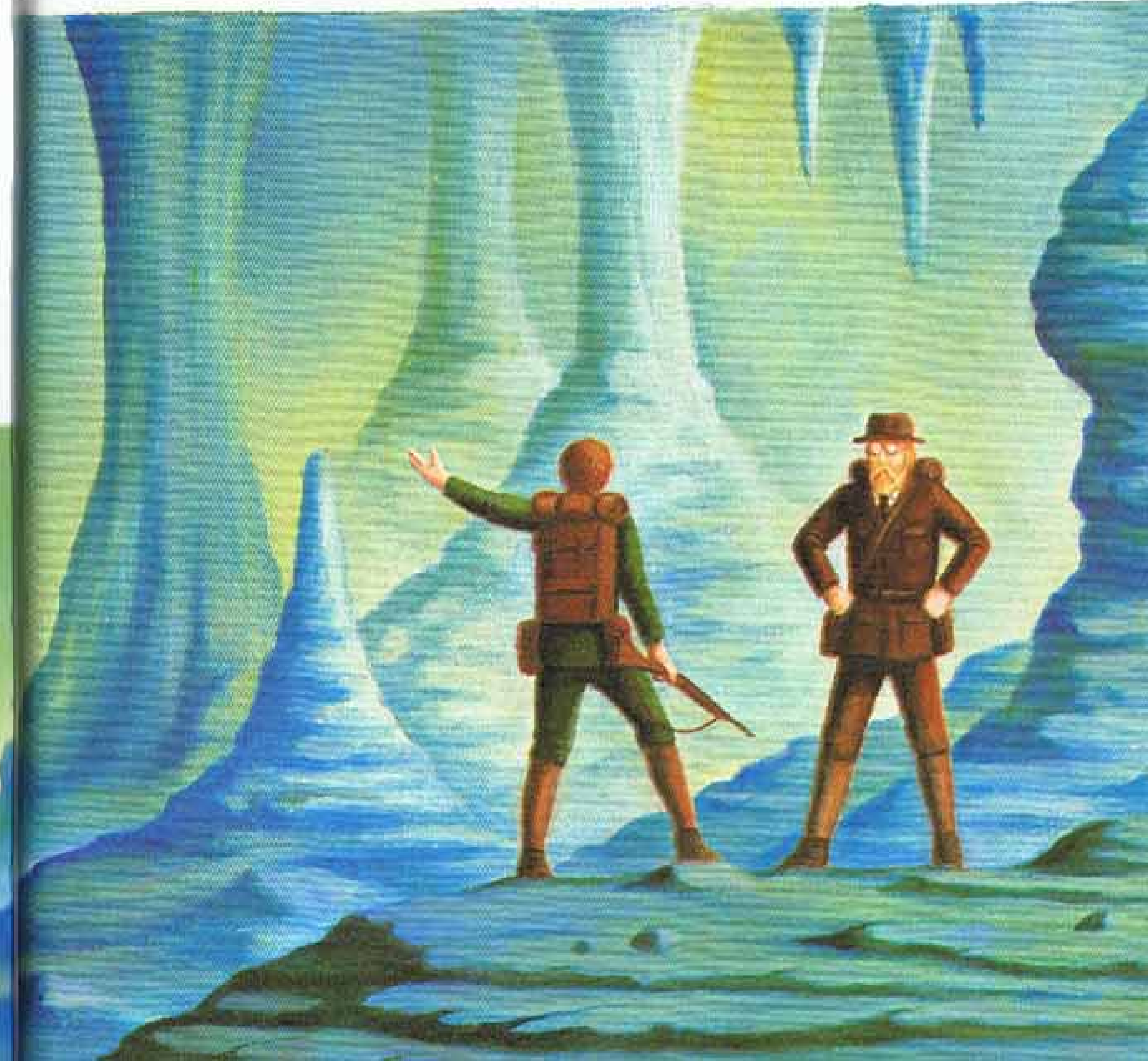
– لا تَخَفْ. لا بُدَّ أَنْ نَجِدَ الماءَ بِمُجَرَّدِ أَنْ نَخْرُجَ مِنْ هٰذا النَّفَقِ. وهَلْ تَتَوَقَّعُ أَنْ تُفَجِّرَ مِياهُ اليَنابيعِ هٰذِهِ الطَّبَقَةَ مِنَ الصُّخورِ البُرْكانِيَّةِ الصَّلْدَةِ!؟

ولَمْ يَكُنْ أَمامي مِنْ حَلٍّ غَيْرُ الاقْتِناعِ بِكَلامِهِ.

إسْتَأْنَفْنا المَسيرَ صَباحًا في الثَّلاثينَ مِنْ حَزيرانَ (يونيو). وقَدْ وَصَلْنا، بَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ اليَوْمِ، إلى نِهايَةِ النَّفَقِ حَيْثُ كانَ يُوجَدُ مَمَرّانِ. إخْتارَ عَمّي، مِنْ دونِ تَرَدُّدٍ، المَمَرَّ الشَّرْقِيَّ، وتابَعْنا الرِّحْلَةَ فَوْرًا.

لَمْ نَكْتَشِفْ خَطَأَنا إلّا بَعْدَ عِدَّةِ أيّامٍ. ما اسْتَطَعْتُ، في البَدْءِ أنْ أَفْهَمَ لِماذا أَخَذْتُ أَجِدُ المَشْيَ مُتْعِبًا جِدًّا، ثُمَّ تَنَبَّهْتُ إلى أَنَّنا كُنّا نَمْشي صُعودًا!

رَفَضَ عَمّي الإقْرارَ بِما لاحَظْتُهُ، ولَمْ يَقْبَلْ بِمُناقَشَةِ المَوْضوعِ إلّا بَعْدَ أنْ لَفَتُّ نَظَرَهُ إلى تَغَيُّرِ نَوْعِيَّةِ الصَّخْرِ. قُلْتُ لَهُ: «أُنْظُرْ يا عَمّي، لَقَدْ تَرَكْنا الصُّخورَ البُرْكانِيَّةَ وعُدْنا إلى الطَّبَقاتِ العُلْيا مِنْ قِشْرَةِ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ.» فَتَساءَلَ: «أَتَعْتَقِدُ ذٰلِكَ؟»



وأَجَبْتُهُ: «أُنْظُرْ بِنَفْسِكَ.. تَفَحَّصِ الصَّخْرَ.»

ومَعَ أَنَّهُ عايَنَ الصَّخْرَ فَقَدْ رَفَضَ العَوْدَةَ مُعَلِّلًا ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ: «لا أَسْتَبْعِدُ إمْكانِيَّةَ سَيْرِنا في المَمَرِّ الخاطِئِ، ولٰكِنَّني لَنْ أَتَأَكَّدَ إلّا عِنْدَما نَصِلُ إلى نِهايَتِهِ.»

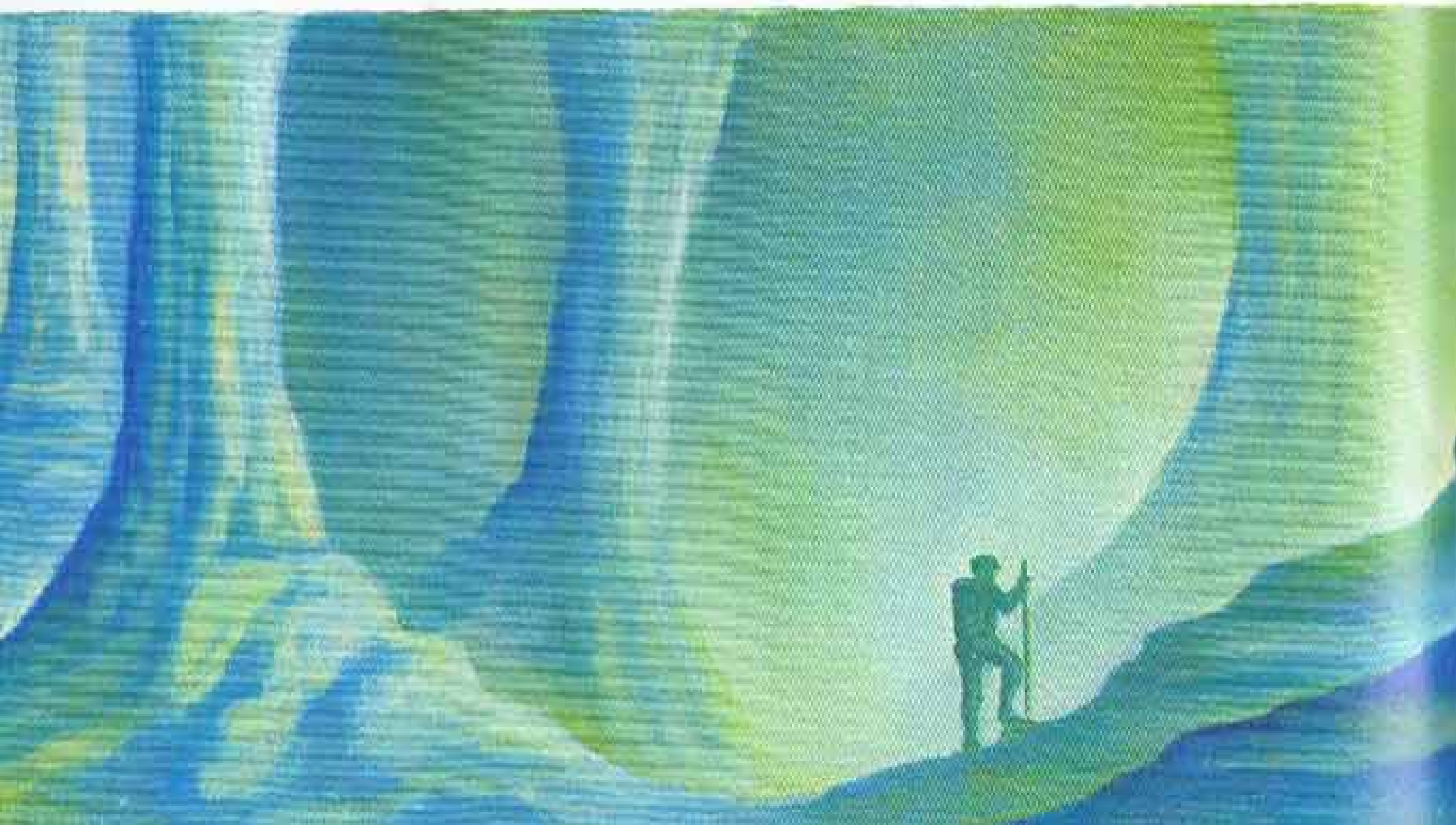
ولَمّا ذَكَّرْتُهُ بِأَنَّ الماءَ قارَبَ النَّفادَ ضاقَ ذَرْعًا بِمَوْقِفي هٰذا الَّذي يَنِمُّ عَنِ اعْتِراضٍ عَلى سُلْطَتِهِ، فَقالَ: «عَلَيْنا إذًا أَنْ نَقْتَصِدَ في شُرْبِ الماءِ.»

وهٰكَذا أَكْمَلْنا التَّقَدُّمَ في ذاكَ المَمَرِّ ثَلاثَةَ أَيّامٍ كامِلَةٍ، إلى أَنْ وَصَلْنا، مَساءَ السَّبْتِ، إلى حائِطٍ صَخْرِيٍّ مَسْدودٍ.

أَزْمَةُ نَقْصِ الماءِ

قَرَّرْنا العَوْدَةَ فَوْرًا مِنْ دونِ أَخْذِ فَتْرَةٍ لِلرّاحَةِ، فَنَقْصُ الماءِ لا يَسْمَحُ لَنا بِإضاعَةِ الوَقْتِ.

كانَتِ الأَيّامُ الثَّلاثَةُ التّالِيَةُ عَصيبَةً، فَقَدْ نَفِدَ الماءُ مَساءَ اليَوْمِ الأَوَّلِ، وعانَيْنا الأَمَرَّيْنِ مِنَ العَطَشِ.



مَرَّتْ عَلَيَّ لَحَظاتٌ شَعَرْتُ فيها أَنّي لَمْ أَعُدْ قادِرًا عَلى التَّحَرُّكِ، ولٰكِنَّ تَشْجيعَ عَمّي لي وقُدْرَةَ هانز على التَّحَمُّلِ كانا يَمُدّاني بِالعَزْمِ.

وأَخيرًا وَصَلْنا، يَوْمَ الأَرْبِعاءِ في الثّامِنِ مِنْ تَمّوزَ (يوليو)، إلى المَكانِ الّذي تَفَرَّعَ فيهِ النَّفَقُ، وقَدْ كادَ العَطَشُ يَقْضي عَلَيْنا. فَوَقَعْتُ أَرْضًا في حالَةِ انْهِيارٍ كُلِّيٍّ.

إِنْدَفَعَ عَمّي نَحْوي وساعَدَني على الجُلوسِ، وكانَ يَحْمِلُ قِنّينَةً في يَدِهِ، وقالَ: «هيّا اشْرَبْ يا عَزيزي. إِنَّها آخِرُ قَطَراتِ ماءٍ لَدَيْنا، وقَدِ احْتَفَظْتُ بِها لِأَجْلِكَ.»

شَكَرْتُ اللهَ لِبادِرَةِ عَمّي هٰذِهِ، وتَناوَلْتُ جُرْعَةَ الماءِ الّتي رَدَّتْ إِلَيَّ الرّوحَ.

بَعْدَ أَنِ اسْتَجْمَعْتُ قُوايَ وشَجاعَتي قُلْتُ لِلبروفسورِ: «والآنَ لَيْسَ أَمامَنا سِوى شَيْءٍ واحِدٍ نَفْعَلُهُ، وهُوَ العَوْدَةُ.»

إِنْتَفَضَ عَمّي غاضِبًا وصاحَ: «كَلّا. لَنْ نَعودَ. لَقَدْ بَدَأْتُ هٰذِهِ الرِّحْلَةَ وسَأُكْمِلُها حَتْمًا. فَلا تَراجُعَ أَلْبَتَّةَ.» وحَدَجَني بِنَظْرَةٍ تَدُلُّ عَلى شِدَّةِ عَزْمِهِ وتَصْميمِهِ، وأَضافَ: «لا شَكَّ في أَنَّ أَرْني سَكْنوسِم قَدْ سَلَكَ المَمَرَّ الآخَرَ، ولا بُدَّ مِنْ أَنَّهُ قَدِ احْتاجَ الماءَ كَما نَحْتاجُهُ نَحْنُ. فَحَيْثُ وَجَدَ الماءَ سَنَجِدُهُ نَحْنُ أَيْضًا.»

أَيْقَنْتُ أَنْ لا مَجالَ لِإِقْناعِ عَمّي بِتَغْييرِ رَأْيِهِ، ولَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ أَتْرُكَهُ يُكْمِلُ وَحْدَهُ. فَمِنَ الآنَ وصاعِدًا لا مَجالَ لِلتَّراجُعِ. ثُمَّ إِنَّ بَيْنَنا وبَيْنَ العالَمِ الخارِجِيِّ سِتَّةَ أَمْيالٍ مِنَ الصُّخورِ الصَّمّاءِ. وعِنْدَما حاوَلْتُ النَّوْمَ بَدا لي أَنَّ ثِقَلَ هٰذِهِ الطَّبَقاتِ الكَثيفَةِ الّتي فَوْقَنا يَكادُ يُطْبِقُ عَلى صَدْري.

جَدْوَلُ الماءِ!

أَمْضَيْنا اليَوْمَ التّالِيَ ونَحْنُ نُكابِدُ السَّيْرَ في المَمَرِّ الثّاني. وكُنْتُ عَلى وَشْكِ فَقْدِ الأَمَلِ، عِنْدَما سَمِعْتُ صَوْتًا غَريبًا، كَأَنَّهُ آتٍ مِنْ داخِلِ الجِدارِ الصَّخْرِيِّ.

وَضَعْنا آذانَنا عَلى الصَّخْرِ مُنْصِتينَ لِالْتِقاطِ الصَّوْتِ ومَصْدَرِهِ.



هَتَفَ عَمّي بِانْشِراحٍ وأَمَلٍ: «إِنَّهُ نَهْرٌ جَوْفِيٌّ. فَهٰذا صَوْتُ ماءٍ جارٍ.»

أَمّا هانز فَقَدْ أَخَذَ يَمْشي مَعَ الجِدارِ مُصْغِيًا لِيَجِدَ أَيْنَ يَكونُ الصَّوْتُ مُرْتَفِعًا.

عَيَّنَ هانز بُقْعَةً تَرْتَفِعُ عَنِ الأَرْضِ حَوالَى ثَلاثَةِ أَقْدامٍ. ثُمَّ رَفَعَ مِعْوَلَهُ وشَرَعَ يَضْرِبُ الجِدارَ الصَّخْرِيَّ. كانَ يَعْمَلُ بِهُدوءٍ وثَباتٍ، بَيْنَما وَقَفْتُ أَنا وعَمّي بِجانِبِهِ نَتَفَرَّس فيهِ باهْتِمامٍ وتَرَقُّبٍ.

نَقَرَ هانز الصَّخْرَ تَدْريجًا إلى أَنْ أَحْدَثَ ثَقْبًا عَرْضُهُ نِصْفُ قَدَمٍ تَقْريبًا، ولَمّا ازْدادَ ارْتِفاعُ صَوْتِ الماءِ خِلْتُ نَفْسي أَشْرَبُ وأَرْوي غَليلي.

بَعْدَ أَنْ أَمْضى هانز أَكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ في العَمَلِ، كانَ عُمْقُ الفُتْحَةِ، في داخِلِ الصَّخْرِ، قَدْ وَصَلَ إلى قَدَمَيْنِ. كادَ صَبْري يَنْفَدُ وأَنا أَنْتَظِرُ. ولاحَظْتُ أَنَّ البروفسور كانَ يَفوقُني اضْطِرابًا. وأَخيرًا انْبَثَقَ فَجْأَةً دَفْقٌ مِنَ الماءِ وَصَلَ بِعُنْفٍ إلى الجِدارِ المُقابِلِ.

ارْتَدَّ هانز مِنْ قُوَّةِ دَفْعِ الماءِ ووَقَعَ أَرْضًا، ولٰكِنْ لَمْ أُدْرِكْ سَبَبَ إِطْلاقِهِ صَرْخَةَ أَلَمٍ إِلّا عِنْدَما وَضَعْتُ يَدي في الماءِ: لَقَدْ كانَ حارًّا لِدَرَجَةِ الغَلَيانِ.

أَخَذْتُ أُحَرِّكُ يَدي الَّتي سَفَعَها الماءُ، وقُلْتُ: «الماءُ حارٌّ حارِقٌ.» فَعَلَّقَ عَمّي مُبْتَسِمًا: «لا بَأْسَ، فَإِنَّهُ سَيَبْرُدُ بَعْدَ قَليلٍ.»

امْتَلأَ المَمَرُّ بِالبُخارِ، وتَكَوَّنَ جَدْوَلٌ يَجْري في أَرْضِهِ المُنْحَدِرَةِ. وقَدْ تَمَكَّنّا، بَعْدَ



قَليلٍ، مِنَ الشُّرْبِ. كانَ الماءُ ما يَزالُ فاتِرًا ولٰكِنَّهُ أَعادَ إِلَيْنا الحَيَوِيَّةَ والانْتِعاشَ. وقَدْ شَرِبْتُ لِعِدَّةِ دَقائِقَ مُتَواصِلَةٍ.

مَلَأْنا قَواريرَنا ماءً، وقَرَّرْنا عَدَمَ رَدْمِ الثُّغْرَةِ حَتّى يَظَلَّ الجَدْوَلُ الجاري في أَرْضِ المَمَرِّ مَصْدَرَ ماءٍ دائِمًا لَنا.

خَمْسَةَ عَشَرَ ميلًا تَحْتَ الأَرْضِ

في الثّاني عَشَرَ مِنْ تَموزَ (يوليو) كُنّا عَلى عُمْقِ خَمْسَةَ عَشَرَ ميلًا تَحْتَ سَطْحِ الأَرْضِ. أَصْبَحَتِ الطَّريقُ أَقَلَّ انْحِدارًا وأَسْهَلَ لِلْمَشْيِ، ولٰكِنَّها كانَتْ رَتيبَةً.

كُنّا نَسيرُ ونَسيرُ ساعةً تِلْوَ ساعةٍ في الاتِّجاهِ نَفْسِهِ. وطِبْقًا لِحِساباتِ عَمّي لَمْ نَكُنْ تَحْتَ أَرْضِ أيسلَنْدا وإنَّما في مَكانٍ ما تَحْتَ البَحْرِ.

وبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّنا كُنّا نَتَوَغَّلُ نُزولًا، فَإنَّني لَمْ أَعُدْ مُتَضايِقًا. ويَبْدو أَنَّ مَخاوِفي السّابِقَةَ قَدْ زالَتْ، ووَجَدْتُ نَفْسي أُشاطِرُ عَمّي البروفسور حَماسَةُ البالِغَ.

لَمْ أَعُدْ أُفكِّرُ بِالشَّمْسِ والقَمَرِ والنُّجومِ وكُلِّ الأَشْياءِ التي تَرَكْناها مُنْذُ مُدَّةٍ في العالَمِ العُلْوِيِّ. والشَّيْءُ الوَحيدُ الّذي أَزْعَجَني هُوَ وَجَعٌ مُسْتَمِرٌّ في أُذُنَيَّ.

طَمْأَنَني عَمّي إلى أَنَّ ذلِكَ عائِدٌ إلى ضَغْطِ الهَواءِ، وأَضافَ: «تَنَفَّسْ بِسُرْعَةٍ تَشْعُرْ بِتَحَسُّنٍ. ثُمَّ هَلْ لاحَظْتَ كَمْ أَنَّ الأَصْواتَ هُنا صافِيَةٌ لِأَنَّ الهَواءَ أَثْقَلُ؟» ووَجَدْتُ أَنَّهُ عَلى حَقٍّ. وفي هٰذِهِ المَرْحَلَةِ تَتابَعَ مَسيرُنا مِنْ دونِ عوائِقَ وصُعوباتٍ.

تائِهٌ في الأَعْماقِ

عِنْدَما حَلَّ السّابِعُ مِنْ آبٍ (أغسطس) كُنّا قَدْ أَصْبَحْنا عَلى عُمْقِ تِسْعينَ مِيلًا تَحْتَ سَطْحِ الأَرْضِ، وعَلى بُعْدِ سِتِّمِئَةِ مِيلٍ مِنْ أيسلَنْدا. كانَ المَمَرُّ مُنْبَسِطًا، وكُنْتُ أَحْمِلُ أَحَدَ المَصابيحِ وأَسيرُ أَمامَ عَمّي وهانز. تَقَدَّمْنا صامِتينَ مَسافَةً طَويلَةً، ولَمّا اسْتَدَرْتُ لِأُكَلِّمَ عَمّي وَجَدْتُ نَفْسي وَحيدًا!

حَدَّثْتُ نَفْسي قائِلًا: «مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّني مَشَيْتُ بِسُرْعَةٍ، ويُمْكِنُ أَنْ يَكونا قَدْ تَوَقَّفا قَليلًا. عَلَيَّ أَنْ أَعودَ إِلَيْهِما.»

سِرْتُ حَوالَى رُبْعِ ساعَةٍ ونَظَرْتُ حَوْلي فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ونادَيْتُ فَلَمْ أَسْمَعْ جَوابًا. لَقَدْ أَضَعْتُ طَريقي وأَصْبَحْتُ وَحْدي.

ساوَرَني قَلَقٌ شَديدٌ وخاطَبْتُ نَفْسي قائِلًا: «لَيْسَ عَلَيَّ إلّا أَنْ أَسيرَ عائِدًا في هٰذا المَمَرِّ الّذي جِئْتُ مِنْهُ وسَأَلْتَقي بِهِما. ثُمَّ إنّي لا يُمْكِنُ أَنْ أَضيعَ ودَليلي هُوَ الماءُ الجاري في أَرْضِ المَمَرِّ. فَما عَلَيَّ إلّا أَنْ أَتْبَعَ مَجْرى الماءِ.»



انْحَنَيْتُ لِأَضَعَ يَدي في الماءِ، ولٰكِنّي تَسَمَّرْتُ في مَكاني لَمّا لَمَسْتُ أَرْضًا صَخْرِيَّةً جافَّةً، فَلا جَدْوَلَ وَلا ماءَ جارِيًا. لا يُمْكِنُني أَنْ أَصِفَ حَقيقَةَ ما دارَ في رَأْسي مِنْ أَفْكارٍ وهَواجِسَ، قَدْ يَكونُ أَلْطَفَها أَنَّني وَحيدٌ كَأَنَّني مَدْفونٌ حَيًّا، وأَنَّني سَأَقْضي – لا مَحالَةَ – مِنَ البَرْدِ والجوعِ والعَطَشِ.

صَرَخْتُ يائِسًا: «أَيْنَ أَنْتَ يا عَمّي» إِذْ قَدَّرْتُ أَنَّهُ الآنَ في أَسًى شَديدٍ لِفَقْدي.

قَرَّرْتُ إِكْمالَ السَّيْرِ صُعودًا، ولَمْ أَجِدْ صعوبةً تُذْكَرُ خِلالَ نِصْفِ ساعَةٍ. بَدا المَكانُ الَّذي أَمُرُّ فيهِ غَيْرَ مَأْلوفٍ، فَأَيْقَنْتُ مُرْتاعًا أَنَّني دَخَلْتُ خَطَأً في مَمَرٍّ جانِبِيٍّ. وقَدْ تَأَكَّدْتُ مِنْ غَلْطَتي هٰذِهِ عِنْدَما اجْتَزْتُ المُنْعَطَفَ الَّذي أَمامي ووَجَدْتُ المَمَرَّ مَسْدودًا!

لَقَدِ اصْطَدَمْتُ بِالحائِطِ الصَّخْرِيِّ الصُّلْبِ، فَوَقَعْتُ أَرْضًا وأَحْسَسْتُ أَنَّ آخِرَ آمالي قَدْ تَحَطَّمَتْ عَلى ذٰلِكَ السَّدِّ اللَّعينِ. فَمِنَ العَبَثِ أَنْ أُحاوِلَ إِنْقاذَ نَفْسي مِنْ هٰذِهِ المَتاهَةِ المُكَوَّنَةِ مِن شَبَكَةٍ لا تُحْصَى مِنَ الأَنْفاقِ والمَمَرّاتِ الصَّخْرِيَّةِ.

وكَأَنَّ كُلَّ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ كافِيًا، إِذْ تَحَطَّمَ مِصْباحي عِنْدَما وَقَعْتُ. فَلَمْ أَعُدْ أَرَى أَمامي غَيْرَ الظَّلامِ والمَوْتِ!



تابَعْتُ المَشْيَ مُتَعَثِّرًا، وقَدْ أَصابَتْني الجِراحُ نَتيجَةَ اصْطِدامي بِالصُّخورِ النّاتِئَةِ. ثُمَّ وَقَعْتُ عَلى الأَرْضِ مُنْهارًا، وبَقيتُ هُناكَ ساعاتٍ ما سَمِعْتُ خِلالَها سِوى دَقّاتِ قَلْبي.

وفَجْأَةً دَوَّى صَوْتٌ عَظيمٌ كَأَنَّهُ قَصْفُ الرَّعْدِ، ثُمَّ أَخَذَ هٰذا الصَّوْتُ يَتَلاشَى. فَمِنْ أَيْنَ أَتَى يا تُرَى؟ هَلْ هُوَ انْفِجارُ غازاتٍ دَفينَةٍ؟ أَوِ انْهِيارُ كُتَلٍ صَخْرِيَّةٍ في مَكانٍ ما في جَوْفِ الأَرْضِ؟

أَلْصَقْتُ أُذُني بِالجِدارِ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ هٰذا الصَّوْتِ في حالِ تَكَرُّرِهِ، ولٰكِنّي فوجِئْتُ بِسَماعِ صَوْتٍ خافِتٍ كَأَنَّهُ كَلِماتٌ. فَشَعَرْتُ بِقُشَعْريرَةٍ تَسْري في بَدَني.

ساءَلْتُ نَفْسي: «هَلْ أَنا واهِمٌ؟»

أَصْغَيْتُ ثانِيَةً، وسَمِعْتُ أَصْواتًا بِالفِعْلِ!

صِحْتُ بِكُلِّ ما تَبَقَّى لَدَيَّ مِنْ قُوَّةٍ: «هُنا... أَنا هُنا.» سَكَتُّ بَعْدَها مُنْصِتًا في ذاكَ السُّكونِ المُظْلِمِ، فَما جاءَني صَوْتٌ.



مَرَّتْ دَقائِقُ وأَنا أُنادي مُكَرِّرًا: «يا عَمّي لِيدِنْبُرك.» ثُمَّ سَمِعْتُ إجابَةً بَعيدَةً: «أَكْسِل. أَهٰذا أَنْتَ يا أَكْسِل؟».

– «أَجَلْ، أَجَلْ. إِنّي تائِهٌ وفي ظَلامٍ مُطْبِقٍ.»

– «صَبْرًا يا أَكْسِل... كُنْ شُجاعًا يا بُنَيَّ. سَوْفَ نَصِلُ إِلَيْكَ... لَقَدْ بَلَغْنا مَكانًا فَسيحًا جِدًّا تَنْحَدِرُ إِلَيْهِ عِدَّةُ مَمَرّاتٍ... والمَمَرُّ الَّذي أَنْتَ فيهِ نِهايَتُهُ هُنا... تَقَدَّمْ... حاوِلْ أَنْ تَصِلَ إلى هُنا وسَتَجِدُنا بِانْتِظارِكَ... هَيّا تَقَدَّمْ.»

دَبَّ فِيَّ الحَماسُ لَدى سَماعي ذٰلِكَ، فَنَهَضْتُ مُتَهالِكًا وانْطَلَقْتُ مُتَّبِعًا تَعْليماتِ عَمّي. والواقِعُ أَنَّ صَوْتَ الكَلامِ بَيْني وبَيْنَ البروفسورِ قَدْ مَرَّ عَبْرَ النَّفَقِ.

بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمْتُ قَليلًا أَصْبَحَتِ الأَرْضُ تَحْتي مُنْحَدِرَةً وكُنْتُ مُنْهَكًا مِنْ شِدَّةِ الإِعْياءِ فَارْتَمَيْتُ أَرْضًا وأَحْسَسْتُ بِنَفْسي أَهْبِطُ مُتَدَحْرِجًا إلى أَنِ ارْتَطَمَ رَأْسي بِحَجَرٍ صَخْرِيٍّ فَأُغْمِيَ عَلَيَّ.

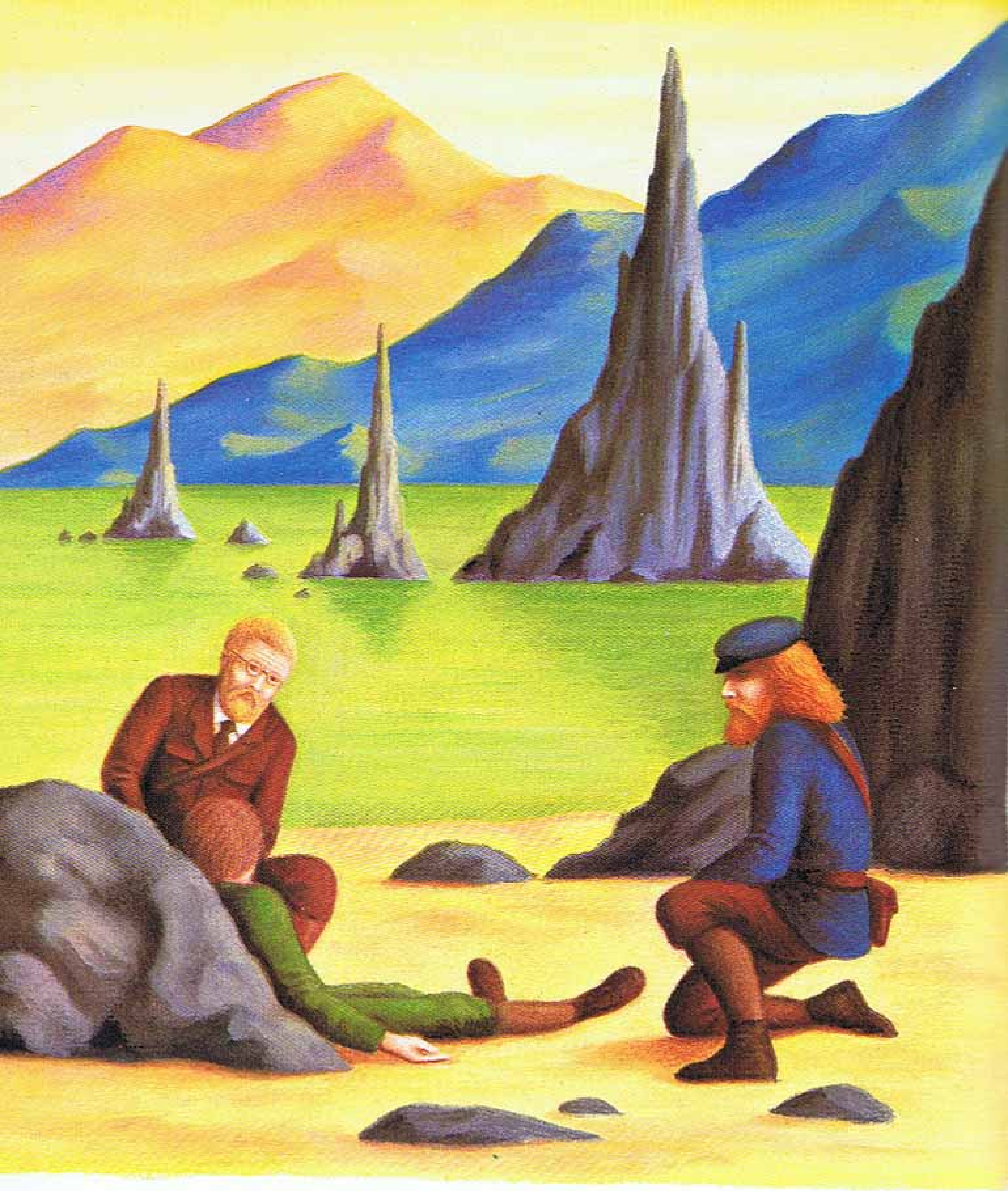
عِنْدَما أَفَقْتُ مِنْ غَيْبوبَتي، فَتَحْتُ عَيْنَيَّ على وَجْهِ عَمّي يَنْظُرُ نَحْوي بِاضْطِرابٍ ظاهِرٍ مُفَتِّشًا عَنْ أَيِّ عَلامَةٍ تَدُلُّ على حَياةٍ.

حينَ بَدَرَتْ مِنّي أَوَّلُ حَرَكَةٍ بَسيطَةٍ انْفَجَرَ عَمّي صائِحًا: «إِنَّهُ حَيٌّ! الحَمْدُ للهِ... لا تَتَحَرَّكِ الآنَ، يَجِبُ أَنْ تَرْتاحَ يا عَزيزي. نَمْ يا أَكْسِل الآنَ، نَمْ. وسَنَتَكَلَّمُ غَدًا.»

وهٰذا هُوَ بِالضَّبْطِ ما كُنْتُ بِحاجَةٍ إِلَيْهِ، فَأَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ، وأَنا أَشْكُرُ اللهَ لِأَنَّني مَعَ رَفيقَيَّ مُجَدَّدًا.

بَحْرٌ تَحْتَ الأَرْضِ

عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ صَباحًا نَظَرْتُ حَوْلي، فَوَجَدْتُ الأَرْضَ مُغَطّاةً بِرَمْلٍ أَبْيَضَ نَقِيٍّ. اِسْتَطَعْتُ أَنْ أَسْمَعَ هَفيفَ هَواءٍ وصَوْتًا كَتَكَسُّرِ أَمْواجٍ عَلى شاطِئٍ. وبَدا المَكانُ مُنيرًا مَعَ أَنَّ مَصابيحَنا كانَتْ مُطْفَأَةً. فَهَلْ كُنْتُ مُسْتَيْقِظًا بِالفِعْلِ أَمْ كُنْتُ أَحْلُمُ؟



أَرَدْتُ النُّهوضَ لِأَسْتَطْلِعَ حَقيقَةَ المَكانِ ، فَحاوَلَ عَمّي أَنْ يُبْقِيَني في مَكاني ، ولٰكِنَّهُ عِنْدَما وَجَدَ أَنَّ فُضولي كانَ عارِمًا سَمَحَ لي بِالنُّهوضِ .



بَعْدَ أَنْ أَلِفَتْ عَيْنَيَّ النُّورَ ، ذُهِلْتُ لِرُؤْيَةِ تَجَمُّعٍ مائِيٍّ مُمْتَدٍّ كَالْبُحَيْرَةِ أَوِ البَحْرِ. خِلْتُ أَنَّني عَلى سَطْحِ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ ثانِيَةً ، فَهُناكَ بَحْرٌ لَهُ شاطِئٌ تَمْتَدُّ وَراءَهُ تِلالٌ مُرْتَفِعَةٌ.

لَمْ يَكُنِ النُّورُ يُشْبِهُ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ وَلا ضَوْءَ القَمَرِ ، إِنَّما كانَ نورًا باهِتًا. رَأَيْتُ أَيْضًا سَماءً كَأَنَّ فَوْقَ غُيومِها سَقْفًا كَبيرًا مِنَ الصُّخورِ البُرْكانِيَّةِ. وَقَدَّرْتُ أَنَّ قُبَّةَ سَمائِنا الباطِنِيَّةِ تِلْكَ تَرْتَفِعُ حَوالَى تِسْعَةِ أَمْيالٍ. وَهٰذِهِ المَسافَةُ تُظْهِرُ مَدى كِبَرِ الكَهْفِ ، أَوِ التَّجْويفِ الفَسيحِ ، الَّذي كُنّا فيهِ.

سِرْتُ وَعَمّي قَليلًا بِمُحاذاةِ الشّاطِئِ نَحْوَ التِّلالِ المَكْسُوَّةِ بِالأَشْجارِ. وَرَأَيْتُ ، لَدى اقْتِرابِنا ، أَنَّ الأَشْجارَ كانَتْ أَشْبَهَ بِفُطورٍ كَبيرَةٍ. ثُمَّ رَأَيْنا أَشْجارًا غَريبَةً أُخْرى ، وَهِيَ مِنَ الأَنْواعِ الَّتي كانَتْ تَنْمو عَلى سَطْحِ الأَرْضِ مُنْذُ مَلايينِ السِّنينَ.

قُلْتُ : «بِاللهِ عَلَيْكَ يا عَمّي ، أَيْنَ نَحْنُ الآنَ؟» فَأَجابَ البروفسورُ مُبْتَسِمًا : «تَحْتَ الأَرْضِ.» ثُمَّ أَكْمَلَ : إِنَّنا ، يا عَزيزي ، عَلى بُعْدِ ١٠٥٠ ميلًا عَنْ أيسلَنْدا وَعُمْقِ مِئَةِ ميلٍ تَحْتَ أَديمِ الأَرْضِ.»



– وَلٰكِنْ ، إِلى أَيْنَ سَنَصِلُ في اسْتِكْشافِنا؟ هَلْ يُمْكِنُنا النُّزولُ تَحْتَ هٰذا البَحْرِ!

– كَلّا بِالطَّبْعِ. وَلٰكِنَّنا سَنُبْحِرُ غَدًا لِلْبَحْثِ عَنْ مَمَرّاتٍ أُخْرى.

– نُبْحِرُ؟ وَبِأَيِّ سَفينَةٍ!

– سَنُبْحِرُ عَلى عَوّامَةٍ. إِنَّ هانز يَعْمَلُ عَلى إِعْدادِها مُنْذُ الأَمْسِ.

عَلى مَتْنِ العَوّامَةِ

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي كانَتِ العَوّامَةُ المَصْنوعَةُ مِنَ الأَخْشابِ المُتَحَجِّرَةِ جاهِزَةً، بِفَضْلِ بَراعَةِ دَليلِنا هانز.

وَضَعْنا ، عَلى العَوّامَةِ ، كُلَّ ما لَدَيْنا مِنْ طَعامٍ وَأَدَواتٍ وَآلاتٍ عِلْمِيَّةٍ ، بِالإِضافَةِ إِلى الكَثيرِ مِنَ الماءِ اسْتِعْدادًا لِرِحْلَةٍ طَويلَةٍ عَبْرَ «بَحْرِ لِيدِنْبُرْك» كَما سَمّاهُ عَمّي بِكُلِّ فَخْرٍ.

اِنْطَلَقْنا في الثّالِثَ عَشَرَ مِنْ آبَ (أغسطس) صَباحًا ، وَقَدْ قَطَعْنا مَسافَةً كَبيرَةً بِفَضْلِ ريحٍ هَبَّتْ بِقُوَّةٍ وَمَلَأَتِ الشِّراعَ المُؤَقَّتَ لِلْعَوّامَةِ.

وبَعْدَ بِضْعِ ساعاتٍ لَمْ نَعُدْ نَلْمَحُ الشَاطِئَ الشَّمالِيَّ الَّذي انْطَلَقْنا مِنْهُ، وأَصْبَحْنا في خِضَمِّ ذاكَ البَحْرِ المَجْهولِ.

كُنّا، في اليَوْمِ التّالي، قَدِ ابْتَعَدْنا مَسافَةَ تِسْعينَ مِيلًا، وكانَتِ العَوّامَةُ تَشُقُّ صَفْحَةَ الماءِ بِسُرْعَةٍ كَبيرَةٍ.

عِنْدَ الظَّهيرَةِ، رَبَطَ هانز صِنارَةً بِخَيْطٍ، ورَماها في الماءِ. ولَمّا لَمْ يَصِدْ شَيْئًا بَعْدَ مُرورِ ساعَتَيْنِ اسْتَنْتَجْنا أَنْ لا حَياةَ في ذٰلِكَ البَحْرِ. ثُمَّ الْتَقَطَ فَجْأَةً أَغْرَبَ سَمَكَةٍ رَأَيْتُها في حَياتي: كانَتْ ذاتَ رَأْسٍ مُسَطَّحٍ مُدَوَّرٍ، والجُزْءُ الخَلْفِيُّ مِنْ جِسْمِها مُغَطًّى بِصَفائِحَ عَظْمِيَّةٍ، ولَمْ يَكُنْ لَها عَيْنانِ ولا أَسْنانٌ ولا ذَيْلٌ. وقَدْ أَوْضَحَ عَمّي أَنَّنا اصْطَدْنا سَمَكَةً مِنْ أَحَدِ أَنْواعِ الأَسْماكِ المُتَحَجِّرَةِ، وأَضافَ: «إِنَّها، في الواقِعِ، سَمَكَةٌ حَيَّةٌ انْقَرَضَتْ عَلى سَطْحِ الأَرْضِ مُنْذُ مِئَةِ مِلْيونِ سَنَةٍ. لَقَدْ وَقَعْنا عَلى كَنْزٍ عِلْمِيٍّ!».

ثَبَتَ لَنا، بَعْدَ ذٰلِكَ، أَنَّ أَنْواعَ السَّمَكِ المَوْجودَةَ في ذٰلِكَ البَحْرِ لا تُوجَدُ عَلى سَطْحِ الأَرْضِ إِلّا كَمُتَحَجِّراتٍ. وسَرْعانَ ما سَرَحَتْ بي مُخَيِّلَتي: إذا كانَ الأَمْرُ هٰكَذا، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ نُصادِفَ، تَحْتَ الأَرْضِ، تِلْكَ الزَّواحِفَ الهائِلَةَ والوُحوشَ الضّارِيَةَ الَّتي عاشَتْ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ مُنْذُ مَلايينِ السِّنينَ؟؟

ولٰكِنَّ ما هَدَّأَ مِنْ رَوْعي هو اسْتِمْتاعي بِالإِبْحارِ في ذٰلِكَ البَحْرِ الهادِئِ المُتَرامي الأَطْرافِ، بَعْدَ المُعاناةِ الطَّويلَةِ في تِلْكَ الأَنْفاقِ الضَّيِّقَةِ الَّتي مَرَرْنا بِها.

حاوَلْنا، فيما بَعْدُ، مَعْرِفَةَ عُمْقِ البَحْرِ، فَرَمى هانز المِعْوَلَ مَرْبوطًا بِحَبْلٍ، وقَدْ رَبَطَ كُلُّ ما لَدَيْنا مِنْ حِبالٍ ولَمْ يَبْلُغِ المِعْوَلُ القَعْرَ. يا إِلٰهي، أَلَيْسَ لِهٰذا البَحْرِ مِنْ قَعْرٍ؟ ولَمّا رَفَعَ المِعْوَلَ، بَعْدَ ذٰلِكَ، أَشارَ إِلى عَلاماتٍ غَريبَةٍ عَلَيْهِ.

قالَ عَمّي بِدَهْشَةٍ بالِغَةٍ: «إِنَّها آثارُ أَسْنانٍ!»

كانَ عَمّي مُصيبًا، وقَدْ ظَهَرَتْ عَلاماتُ الأَسْنانِ بِشَكْلٍ واضِحٍ. فَهَلْ تُوجَدُ مَخْلوقاتٌ وَحْشِيَّةٌ في أَعْماقِ البَحْرِ تَحْتَنا؟ لَقَدْ أَرْعَبَني هٰذا الاحْتِمالُ، فَبادَرْتُ إِلى تَفَقُّدِ أَسْلِحَتِنا.



وُحوشُ الأَعْماقِ

بَعْدَ ساعَتَيْنِ تَقْريبًا ، تَبَيَّنَ أَنَّ مَخاوِفي كانَتْ في مَحَلِّها ، إِذْ عَلَتْ عَوّامَتُنا فَجْأَةً ، ثُمَّ وَقَعَتْ عَلى صَفْحَةِ الماءِ ، وشاهَدْنا جِسْمَيْنِ داكِنَيِ اللَّوْنِ يَرْتَفِعانِ مِنْ بَيْنِ الأَمْواجِ ، عَلى بُعْدِ حَوالَى ١٢٠٠ قَدَمٍ مِنَ العَوّامَةِ . كانَ هٰذانِ المَخْلوقانِ مِنَ الضَّخامَةِ بِمَكانٍ حَتّى بَدَتِ العَوّامَةُ نُقْطَةً صَغيرَةً إِزاءَهُما . أَخَذا يَقْتَرِبانِ مِنّا ويَدورانِ حَوْلَنا ، فَسَلَّمْنا أَمْرَنا إِلى اللهِ لِأَنْ لا مَفَرَّ مِنْ أَمامِهِما .

تَناوَلْتُ بُنْدُقِيَّةً اسْتِعْدادًا لِإِطْلاقِ النّارِ ، وَلٰكِنَّنا اكْتَشَفْنا أَنَّهُما لَمْ يُلاحِظا وُجودَنا ، بَلْ تَواجَها وبَدَآ العِراكَ . كانَتِ المَعْرَكَةُ شَرِسَةً ، وقَدْ أَثارَتْ حَرَكَتُهُما أَمْواجًا عاتِيَةً كَالجِبالِ . مَرَّتْ ساعَتانِ والعِراكُ دائِرٌ حَوْلَنا ، وما كانَ أَمامَنا غَيْرُ انْتِظارِ الفَرَجِ ورَجاءِ الخَلاصِ .



اِخْتَفى الوَحْشانِ فَجْأَةً تَحْتَ سَطْحِ الماءِ ، وما لَبِثَ أَحَدُهُما أَنْ طَفا عَلى وَجْهِ الماءِ هامِدًا بِلا حَراكٍ . وقَدْ حَمِدْنا اللهَ عَلى أَنَّ خَصْمَهُ لَمْ يَظْهَرْ ثانِيَةً ، فَأَمِنّا جانِبَنا مُؤَقَّتًا ، وأَصْبَحْنا شَديدي اليَقْظَةِ والحَذَرِ خَوْفًا مِنْ بُروزِ الخَطَرِ مُجَدَّدًا .

النّافورَةُ الغَريبَةُ

مَرَّ اليَوْمانِ التّالِيانِ بِهُدوءٍ وسَلامٍ . وَفي اليَوْمِ الثّالِثِ شاهَدْنا ، عَلى مَسافَةٍ بَعيدَةٍ مِنّا ، دَفْقًا قَوِيًّا مِنَ الماءِ يَرْتَفِعُ نَحْوَ السَّماءِ . وكُلَّما اقْتَرَبْنا وَجَدْنا أَنَّ الماءَ يَزْدادُ ارْتِفاعًا . اِعْتَقَدْتُ أَنَّ هُناكَ حَيَوانًا جَبّارًا يَنْفُثُ الماءَ مِنْ مِنْخَرِهِ .

أَصْبَحْنا ، في الثّامِنَةِ مَساءً ، عَلى بُعْدِ حَوالَى سِتَّةِ أَمْيالٍ مِنْ هٰذا النَّفّاثِ المائِيِّ الغَريبِ ، ثُمَّ اسْتَطَعْنا أَنْ نَلْمَحَ شَكْلًا أَسْوَدَ قائِمًا في البَحْرِ ، وقَدْ ظَهَرَ ضَخْمًا وعالِيًا كَالجَبَلِ الشّامِخِ . كانَ ساكِنًا ، لا يَتَحَرَّكُ وَلا يَتَزَحْزَحُ ، وكانَتِ الأَمْواجُ تَتَكَسَّرُ عَلَيْهِ فَيَتَطايَرُ الرَّذاذُ ويَنْتَشِرُ الزَّبَدُ . لَقَدْ أَفْزَعَني حَجْمُهُ الهائِلُ وصَمْتُهُ الرَّهيبُ ، فَهَلْ كانَ جاثِمًا هُناكَ يَتَرَبَّصُ بِنا شَرًّا؟؟

وَقَفَ هانز وأَخَذَ يُحَدِّقُ بِإِمْعانٍ ، ثُمَّ اسْتَدارَ نَحْوَنا بَعْدَ دَقائِقَ وقَدْ رَسَمَ عَلى وَجْهِهِ ابْتِسامَةً ساخِرَةً ، وقالَ ضاحِكًا : «إِنَّها جَزيرَةٌ ! وعَمودُ الماءِ هٰذا لَيْسَ إِلّا حَمَّةً فَوّارَةً .»

أَخَذْتُ ، فَوْرًا ، أُؤَنِّبُ نَفْسي عَلى شِدَّةِ خَوْفي الَّذي جَعَلَني أَحْسَبُ الجَزيرَةَ حَيَوانًا ضَخْمًا !





أَمْضَيْنا بَعْضَ الوَقْتِ في اسْتِكْشافِ شاطِئِ تِلْكَ الجَزيرَةِ البُرْكانِيَّةِ ، ثُمَّ غادَرْناها بَعْدَ أَنْ أَطْلَقَ عَلَيْها عَمّي اسْمَ «جَزيرَةِ أَكْسِل».

أَبْحَرْنا طَوالَ اليَوْمِ التّالي ، وَقَدْ لاحَظْنا اخْتِلافًا في حالَةِ الطَّقْسِ ، إذْ تَحَوَّلَ لَوْنُ السُّحُبِ إلى البُنِّيِّ المُخْضَرِّ ، وَأَصْبَحَتْ مُنْخَفِضَةً فَوْقَ البَحْرِ.

عاصِفَةٌ عاتِيَةٌ

هَبَّتْ ، بَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ اليَوْمِ ، عاصِفَةٌ قَوِيَّةٌ. أَخَذَ المَطَرُ يَهْطُلُ بِغَزارَةٍ وَعَنُفَتِ الرِّيحُ ، وَكانَ الرَّعْدُ يَقْصِفُ بِشِدَّةٍ ، فيما أَصْبَحَتِ السَّماءُ سَوْداءَ قاتِمَةً.

اِسْتَمَرَّتِ العاصِفَةُ ضارِيَةً ثَلاثَةَ أَيّامٍ مُتَوالِيَةٍ أَصْبَحْنا فيها عَلى شَفا الانْهِيارِ التّامِّ مِنْ شِدَّةِ اليَأْسِ وَالتَّعَبِ. ثُمَّ أَحْسَسْنا بِضيقٍ في التَّنَفُّسِ ، إذْ غَدا الهَواءُ ثَقيلًا وَكَأَنَّهُ مَشْحونٌ بِقُوَّةٍ كَهْرَبائِيَّةٍ.



ثُمَّ بَرَزَتْ قُرْبَ عَوّامَتِنا كُرَةٌ نارِيَّةٌ صَغيرَةٌ لَوْنُ لَهيبِها أَزْرَقُ بَهِيٌّ ، وَقَدِ امْتَلأَ الهَواءُ بِرائِحَةٍ غَريبَةٍ فَكِدْنا نَخْتَنِقُ.

تَنَبَّهْتُ فَجْأَةً إلى أَنَّني أَقِفُ تَمامًا في طَريقِ تِلْكَ الكُرَةِ النّارِيَّةِ ، فَاسْتَدَرْتُ بِعُنْفٍ مُبْتَعِدًا عَنْ طَريقِها. وَما لَبِثَتِ الكُرَةُ أَنِ انْفَجَرَتْ مُشِعَّةً بِنورٍ ساطِعٍ فائِقِ البَهاءِ ، ثُمَّ أَظْلَمَتِ الأَجْواءُ أَمامَ عَيْنَيَّ وَفَقَدْتُ الوَعْيَ.

كانَتِ العاصِفَةُ قَدِ انْجَلَتْ عِنْدَما أَفَقْتُ مِنَ الإِغْماءِ ، وَقَدْ صَفَتِ السَّماءُ وَهَدَأَ البَحْرُ. كُنّا مُرْتَمينَ عَلى العَوّامَةِ مُنْهَكينَ بَعْدَ ثَلاثِ لَيالٍ بِلا نَوْمٍ. وَقَدْ حَمَلَنا الهَواءُ اللَّطيفُ نَحْوَ السّاحِلِ.

عَمَدْنا ، لَدى وُصولِنا إلى اليابِسَةِ ، إلى الرّاحَةِ قَليلًا ثُمَّ تَفَقُّدِ أَحْوالِنا ، كانَ هانز الشُّجاعُ قَدْ تَمَكَّنَ – خِلالَ العاصِفَةِ – مِنْ تَخْليصِ الكَثيرِ مِنْ أَمْتِعَتِنا ؛ وَقَدْ بَقِيَ لَدَيْنا ، بِفَضْلِ إِقْدامِهِ وَتَضْحِيَتِهِ ، طَعامٌ يَكْفينا مُدَّةَ شَهْرَيْنِ.

قَرَّرْنا أَنْ نَرْتاحَ النَّهارَ كُلَّهُ لِنَسْتَعيدَ عافِيَتَنا قَبْلَ أَنْ نَقومَ بِجَوْلَةٍ في الأَرْضِ الَّتي نَزَلْناها.

في اليَوْمِ التّالي، تَوَغَّلْنا لِمُدَّةِ نِصْفِ ساعَةٍ، ووَصَلْنا إلى أَسْفَلِ سُفوحِ سِلْسِلَةٍ مِنَ التِّلالِ، وكانَ عَلى الأَرْضِ حَوْلَنا الكَثيرُ مِنَ العِظامِ القَديمَةِ المُبْيَضَّةِ وكُلُّها ذاتُ أَحْجامٍ ضَخْمَةٍ.

رَأَيْنا تاريخَ الحَياةِ عَلى الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ مُمْتَدًّا أَمامَنا. فَقَدْ أَعْلَمَني عَمّي أَنَّ تِلْكَ العِظامَ هِيَ لِحَيَواناتٍ لَمْ يَعُدْ لَها وُجودٌ عَلى سَطْحِ الأَرْضِ. وقَدْ تَمَلَّكَنا شُعورٌ بِالإِثارَةِ والفُضولِ.

بَعْدَ مَسيرِ مَسافَةِ ميلٍ وصَلْنا طَرَفَ غابَةٍ غَريبَةٍ، لَيْسَ لِأَشْجارِها لَوْنٌ. ولَمْ يَكُنْ في لَوْنِ أَوْراقِها ما يَمُتُّ إلى الأَخْضَرِ بِصِلَةٍ، أَمّا الأَزْهارُ فكانَتْ كُلُّها رَمادِيَّةً. سارَ عَمّي إلى داخِلِ تِلْكَ الغابَةِ وتَبِعْتُهُ عَنْ كَثَبٍ، وأَنا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ.

وُحوشُ عَصْرِ الجَليدِ

تَوَقَّفْتُ فَجْأَةً وأَمْسَكْتُ عَمّي إذْ لَمَحْتُ شَكْلًا ضَخْمًا يَتَحَرَّكُ بَيْنَ الأَشْجارِ. دَقَّقْتُ النَّظَرَ فَإذا بي أَرى واحِدًا مِنْ فِيَلَةِ الماموثِ، تِلْكَ الفِيَلَةِ الضَّخْمَةِ المُغَطّاةِ بِالشَّعْرِ، الَّتي كانَتْ تَعيشُ عَلى الأَرْضِ في عَصْرِ الجَليدِ! ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّ بَيْنَ الأَشْجارِ حَوالَى عِشْرينَ مِنْها!

قال لي عَمّي: «هَيّا، لِنَقْتَرِبْ مِنْها.»

فاعْتَرَضْتُ قائِلًا: «كَلّا. ولِمَ نُعَرِّضُ نَفْسَيْنا لِلخَطَرِ؟ لا يُمْكِنُ لِأَيِّ إِنْسانٍ عاقِلٍ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْ هٰذِهِ المَخْلوقاتِ!»

وأَجابَني: «أَنْتَ مُخْطِئٌ يا أَكْسِل. أُنْظُرْ إلى هُناكَ! إنَّني أَرى إِنْسانًا مِثْلَنا!»

ولَمّا نَظَرْتُ إلى حَيْثُ يُشيرُ عَمّي أَيْقَنْتُ صِحَّةَ ما يَقولُ!

كانَ هُناكَ، عَلى بُعْدِ حَوالَى رُبْعِ ميلٍ مِنّا مَخْلوقٌ أَشْبَهُ بِالإِنْسانِ مُتَّكِئٌ عَلى جِذْعِ شَجَرَةٍ. لكِنَّ طولَهُ كانَ يَبْلُغُ حَوالَى ١٢ قَدَمًا، وكانَ شَعْرُهُ طَويلًا ومُشَعَّثًا كَشَعْرِ تِلْكَ الفِيَلَةِ الضَّخْمَةِ الَّتي يَرْعاها.





جَمُدْنا هُناك بِلا حَراكٍ. وخَشِيتُ مِنْ أَنْ نُرَى فَهَتَفْتُ مَذْعورًا: «فَلْنَرْجِعْ بِسُرْعَةٍ إلى العَوّامَةِ.» ولَمْ أَنْتَظِرْ جوابَ عَمّي، بَلْ جَذَبْتُهُ وأَخَذْتُ أَرْكُضُ. لَمْ يُناقِشْني عَمّي هٰذِهِ المَرَّةَ، فَرُحْنا نَجْري مَذْعورَيْنِ بِاتِّجاهِ شاطِئِ «بَحْرِ لِيدِنْبُرُك»

تَعَثَّرْتُ أَثْناءَ الجَرْيِ ووَقَعْتُ عَلى الأَرْضِ، وقَدْ وَقَعَ نَظَري عَلى شَيْءٍ مَعْدِنِيٍّ يَلْمَعُ بَيْنَ الرَّمْلِ النّاعِمِ. اِقْتَرَبْتُ مِنْهُ فَوَجَدْتُ أَنَّهُ سِكّينٌ، فَأَرَيْتُهُ لِلبروفسورِ.

سَأَلَني عَلى الفَوْرِ: هَلْ أَحْضَرْتَ هٰذا السِّكّينَ مَعَكَ؟

– أنا... كَلّا. أَلَيْسَ لَكَ؟

– أَبَدًا. أنا لَمْ أَجْلُبْ شَيْئًا كَهٰذا؟ ولا هانز.

– إِنَّهُ لَشَيْءٌ غَريبٌ فِعْلًا!

عَلامَةُ سَكْنوسِم

أَطْرَقَ عَمّي قَليلًا، ثُمَّ قالَ بِهُدوءٍ: «إذا كُنّا نَحْنُ لَمْ نُحْضِرْ هٰذا السِّكّينَ، فَلا بُدَّ مِنْ أَنَّه هُنا مُنْذُ ثَلاثِمِئَةِ سَنَةٍ. لا شَكَّ في أَنَّ أَحَدًا وَصَلَ قَبْلَنا إلى هٰذا المَكانِ!»

مَشَيْنا بِمُحاذاةِ سِلْسِلَةِ الصُّخورِ المُواجِهَةِ لِلشّاطِئِ، ولَدى وُصولِنا إلى مَكانٍ يُوجَدُ فيهِ مَمَرٌّ مُعْتِمٌ بَيْنَ الصُّخورِ لاحَظْتُ وُجودَ عَلامَةٍ ما. دَقَّقْنا النَّظَرَ، فَرَأَيْنا الحَرْفَيْنِ اللَّذَيْنِ كُنّا قَدْ شاهَدْناهُما مَرّاتٍ عِدَّةً قَبْلَ ذٰلِكَ: «أ. س.».

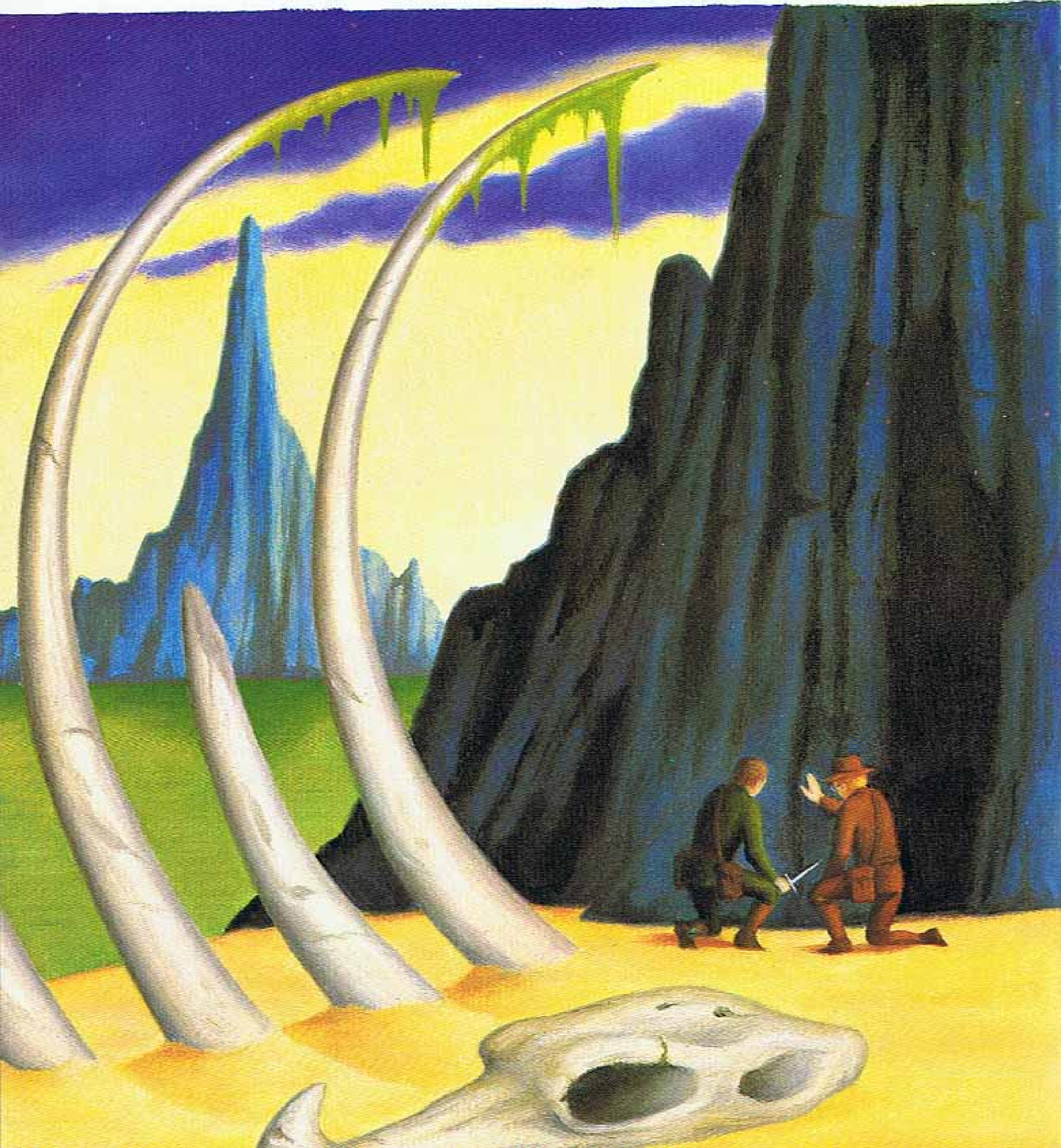
إِذًا فَقَدْ مَرَّ أَرْني سَكْنوسِم مِنْ هُنا قَبْلَنا.

كُنْتُ، خِلالَ الرِّحْلَةِ، قَدْ مَرَرْتُ بِمُفاجَآتٍ لا تُحْصَى، خِلْتُ مَعَها أَنْ لا شَيْءَ بَعْدُ يُمْكِنُ أَنْ يُشَكِّلَ لي مُفاجَأَةً. ولٰكِنّي، لَدى مُعايَنَةِ ذَيْنِكَ الحَرْفَيْنِ، ارْتَعَشْتُ لِرُؤْيَةِ بُرْهانٍ دامِغٍ عَلى وُصولِ ذٰلِكَ الرَّحّالَةِ العَظيمِ إلى هُناكَ! وها إِنّي أُمْسِكُ بِيَدي الأَداةَ نَفْسَها الَّتي حَفَرَ بِها اسْمَهُ!

نَسيتُ كُلَّ الأَهْوالِ الَّتي واجَهَتْنا، ولَمْ أُفَكِّرْ بِما قَدْ يَعْتَرِضُنا في عَوْدَتِنا. فَحَيْثُ ذَهَبَ

كائِنٌ بَشَرِيٌّ قَبْلي يُمْكِنُني أَنْ أَذْهَبَ ، وَلا شَيْءَ مُسْتَحيلٌ بَعْدَ الآنَ. فَخاطَبْتُ عَمّي بِحَماسٍ : «إِنَّ شَيْئًا رائِعًا يَقودُنا الآنَ. لِنُكْمِلْ طَريقَنا.»

تَوَجَّهْنا فَوْرًا إِلى مَكانِ وُجودِ العَوّامَةِ ، وَأَحْضَرْنا هانز اسْتِعْدادًا لإِكْمالِ الرِّحْلَةِ سَيْرًا. كانَ سَكْنوسِم قَدْ حَفَرَ الحَرْفَيْنِ الأَوَّلَيْنِ مِنِ اسْمِهِ عِنْدَ بِدايَةِ المَمَرِّ الَّذي سَيَقودُنا أَخيرًا إِلى قَلْبِ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ.



النَّفَقُ المَسْدودُ

دَخَلْنا ذاكَ النَّفَقَ المُظْلِمَ ، ولٰكِنَّنا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَخْطُوَ أَكْثَرَ مِنْ سِتِّ خَطْواتٍ أَوْ سَبْعٍ ، فَقَدِ اصْطَدَمْنا بِصَخْرَةٍ كَبيرَةٍ تَسُدُّ المَمَرَّ وَتَضَعُ نِهايَةً غَيْرَ مُتَوَقَّعَةٍ لِمَسيرَتِنا .

أُصِبْتُ بِخَيْبَةِ أَمَلٍ كَبيرَةٍ ، حَتّى إِنّي رَفَضْتُ القَبولَ بِفِكْرَةِ الحائِطِ المَسْدودِ . وانْحَنَيْتُ نَحْوَ الأَرْضِ أُفَتِّشُ عَنْ ثُغْرَةٍ ما أَوْ شَقٍّ في ذٰلِكَ الحائِطِ الصَّخْرِيِّ ، ولٰكِنْ مِنْ دونِ طائِلٍ . ثُمَّ أَخَذْتُ أَتَساءَلُ : «هَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَفْقِدَ الأَمَلَ في هٰذِهِ المَرْحَلَةِ المُتَقَدِّمَةِ مِنْ رِحْلَتِنا ؟»

عُدْنا إِلى العَوّامَةِ لِنُفَكِّرَ بِالخَطْوَةِ التّالِيَةِ . اقْتَرَحَ عَمّي أَنْ نَسْتَعْمِلَ المِعْوَلَ لِنَفْتَحَ طَريقًا لَنا في الصَّخْرِ ، وأَضافَ : «يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ الصَّخْرُ قَدْ سَدَّ النَّفَقَ بَعْدَ مُرورِ سَكْنوسِم مِنْ هُنا . عَلَيْنا أَنْ نُعيدَ فَتْحَ النَّفَقِ .»

فَسَأَلْتُهُ : «لِمَ لا تُجَرِّبُ اسْتِعْمالَ البارودِ؟ فَهُوَ أَفْعَلُ مِنَ المِعْوَلِ في هٰذا الصَّخْرِ الصُّلْبِ .»

تَهَلَّلَ وَجْهُهُ وعَلَّقَ : «رائِعٌ يا بُنَيَّ ، إِنَّها لَفِكْرَةٌ عَظيمَةٌ .»

عِنْدَما انْتَصَفَ اللَّيْلُ كُنّا قَدْ أَعْدَدْنا كُلَّ شَيْءٍ ، وكانَتِ المُتَفَجِّراتُ جاهِزَةً في مَكانِها ، لٰكِنَّ عَمّي أَصَرَّ عَلى الانْتِظارِ حَتّى اليَوْمِ التّالي .



في الصَّباحِ ، طَلَبْتُ مِنْ عَمّي أَنْ أُشْعِلَ الفَتيلَ بِنَفْسي . وهٰكَذا ذَهَبْتُ في تَمامِ السّادِسَةِ إِلى فُتْحَةِ المَمَرِّ وأَمْسَكْتُ طَرَفَ الفَتيلِ البَطيءِ الاشْتِعالِ . وسَمِعْتُ صَوْتَ البروفسورِ يَهْتِفُ : «هَلْ أَنْتَ جاهِزٌ ؟»

أَجَبْتُ : «نَعَمْ ... الآنَ» ، وأَشْعَلْتُ الفَتيلَ بِواسِطَةِ ثِقابٍ .

ثُمَّ رَكَضْتُ عائِدًا إِلى مَتْنِ العَوّامَةِ حَيْثُ انْتَظَرْنا بِكُلِّ لَهْفَةٍ . كانَ عَمّي يَحْسُبُ الوَقْتَ : «... لَقَدْ آنَ الأَوانُ ... خَمْسَةٌ ... أَرْبَعَةٌ ... ثَلاثَةٌ ... اثْنانِ ... واحِدٌ . الآنَ !»

عِنْدَها رَأَيْتُ شَكْلَ الصُّخورِ يَتَغَيَّرُ أَمامَ ناظِرَيَّ ، فَقَدِ انْفَتَحَ الصَّخْرُ بِانْفِجارٍ مُدَوٍّ يُصِمُّ الآذانَ . بَدا أَنَّ فَجْوَةً واسِعَةً شَقَّتِ الصَّخْرَ وامْتَدَّتْ نَحْوَ الشّاطِئِ . لَقَدِ اضْطَرَبَ البَحْرُ وشَكَّلَ مَوْجَةً جَبّارَةً حَمَلَتْ مَعَها العَوّامَةَ .



تَمَسَّكْنا هَلِعينَ بِأَرْضِ العَوّامَةِ الَّتي انْدَفَعَتْ إلى الأَمامِ . وبَعْدَ لَحَظاتٍ أَصْبَحْنا في وَسَطِ الظَّلامِ ، لَقَدْ حَمَلَنا الماءُ إلى داخِلِ الفَجْوَةِ .

أَخَذَتِ العَوّامَةُ تَجْري بِنا داخِلَ النَّفَقِ بِسُرْعَةٍ هائِلَةٍ تَفوقُ سُرْعَةَ سَيْرِ القِطارِ . الْتَصَقْنا بِأَرْضِ العَوّامَةِ وقَدِ اقْتَرَبَ واحِدُنا مِنَ الآخَرِ وتَماسَكْنا بِالأَيْدي حَتّى لا نَزِلَّ عَنْها .

ازْدادَ هَلَعُنا عِنْدَما اكْتَشَفْنا أَنَّ مُعْظَمَ ما كانَ عَلى العَوّامَةِ قَدْ وَقَعَ في الماءِ : فَلَيْسَ هُناكَ مِنَ الأَدَواتِ شَيْءٌ . أَمّا الطَّعامُ الَّذي تَبَقّى فَكانَ يَكْفينا يَوْمًا واحِدًا فَقَطْ .

وحَقيقَةُ ما حَصَلَ بِبَساطَةٍ هُوَ أَنَّ ماءَ البَحْرِ قَدِ انْدَفَعَ إلى داخِلِ النَّفَقِ وحَمَلَنا مَعَهُ إلى أَعْمَقِ أَعْماقِ الأَرْضِ . فَلَمْ أَتَمالَكْ مِنَ التَّساؤُلِ : «ماذا سَيَحِلُّ بِنا ؟ هَلْ سَأَرى هامْبورْغ ثانِيَةً ؟؟»

المِصْعَدُ المائِيُّ

اِسْتَمَرَّ الماءُ المُنْدَفِعُ يَسْحَبُنا مَعَهُ ساعاتٍ وساعاتٍ . وفي حَوالى السّاعَةِ الرّابِعَةِ مِنْ بَعْدِ

الظُّهْرِ لاحَظْنا أَنَّ الصَّوْتَ الصّاخِبَ قَدْ تَلاشى ، وأَنَّ هَديرَ الماءِ قَدْ خَفَتَ . وصاحَ عَمّي : «إِنَّنا نَرْتَفِعُ صُعودًا !»

وهٰذا ما كانَ يَحْدُثُ بِالضَّبْطِ ، إِذْ كُنّا نَتَحَرَّكُ صُعودًا بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ .

وأَضافَ عَمّي : «هٰذا ما كُنْتُ أَتَوَقَّعُهُ . نَحْنُ الآنَ في مَنْفَذٍ بُرْكانِيٍّ . لَقَدْ وَصَلَ الماءُ إلى القَعْرِ ، وها هُوَ يَرْفَعُنا بِفَضْلِ قُوَّةِ دَفْعِ تَيّارِهِ . إِنَّنا في مِصْعَدٍ مائِيٍّ !»

فَسَأَلْتُهُ : «وإلى مَتى سَيَظَلُّ هٰذا المِصْعَدُ يَعْلو بِنا ؟» وأَجابَني : «مَنْ يَدْري ؟ يَبْدو أَنَّنا نَرْتَفِعُ بِسُرْعَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قَدَمًا في الثّانِيَةِ ، أَيْ ما يُوازي تِسْعَةَ أَمْيالٍ ونِصْفًا في السّاعَةِ .»

مَرَّتْ ساعَةٌ عَلى هٰذا المِنْوالِ ، وأَخَذْنا نُعاني مِنَ الجوعِ ، لٰكِنْ لَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ مِنّا عَلى لَمْسِ الطَّعامِ القَليلِ الباقي مَعَنا . وكُنّا ، كُلَّما صَعِدْنا ، نَشْعُرُ بِارْتِفاعِ حَرارَةِ الهَواءِ حَوْلَنا .

لَمْ يَنْطِقْ أَحَدُنا بِأَيِّ كَلِمَةٍ . ثُمَّ تَناوَلْنا آخِرَ وَجْبَةِ طَعامٍ لَدَيْنا ونَحْنُ صامِتونَ . وقَدْ رَجَعَتْ بِي الذِّكْرَياتُ إلى سابِقِ عَهْدي في هامْبورْغ وأَحْسَسْتُ بِأَنَّهُ ما كانَ يَجِبُ أَنْ أُغادِرَها .

تضايَقْتُ كثيرًا عِنْدَما ازْدادَ ارْتِفاعُ الحَرارَةِ، فَخاطَبْتُ عَمّي قائِلًا: «إنَّ هٰذِهِ الصُّخورَ - يا عَمّي - حارِقَةٌ! والماءُ يَغْلي.»

فَسأَلَني مُسْتَغْرِبًا: «ولِمَ تَشْكو مِنْ ذٰلِكَ؟»

- اُنْظُرْ يا عَمّي، انْظُرْ... الجُدْرانُ تَتَحَرَّكُ، والماءُ تَحْتَنا حارِقٌ. وما هٰذِهِ إلّا دَلائِلُ عَلى نَشاطٍ بُرْكانِيٍّ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟ لا بُدَّ أَنَّنا في وَسَطِ بُرْكانٍ مُشْتَعِلٍ!

فَأَجابَني باسِمًا: «أَجَلْ يا بُنَيَّ. إنَّكَ عَلى صَوابٍ. وقَدْ يَكونُ هٰذا أَفْضَلَ حَلٍّ لَنا الآنَ.. إنَّهُ أَمَلُنا الوَحيدُ بِالعَوْدَةِ إلى وَجْهِ الأَرْضِ.»

البُرْكانُ يَلْفِظُنا

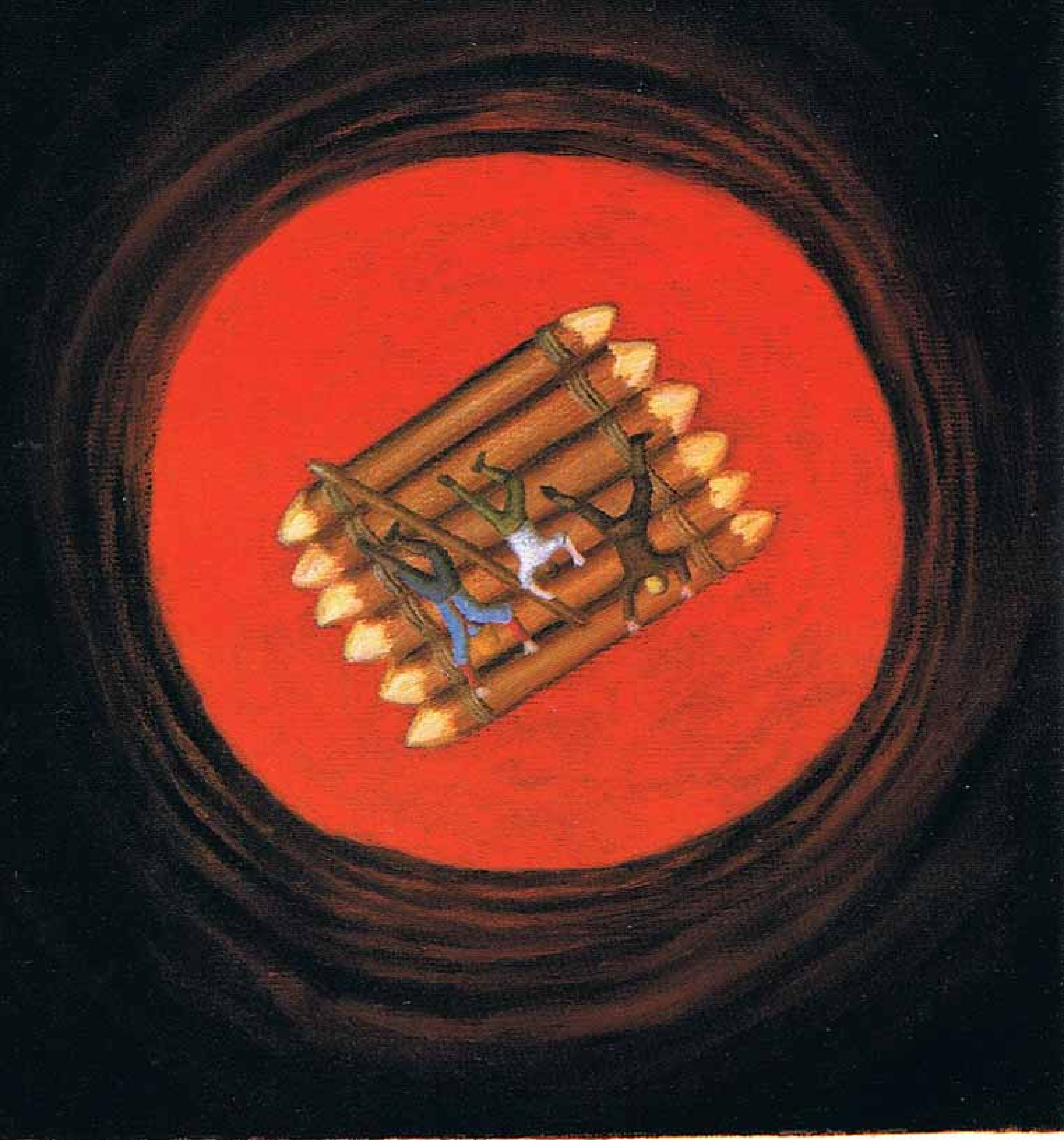
مَرَّ اللَّيْلُ ونَحْنُ نَتَّجِهُ صُعودًا، وبِعِبارَةٍ أَدَقَّ: ونَحْنُ نُقْذَفُ صُعودًا، وذٰلِكَ بِفَضْلِ ضَغْطِ البُخارِ والماءِ والحُمَمِ في ذاكَ المَنْفَذِ البُرْكانِيِّ العَمودِيِّ. وقَدْ أَطْبَقَ الجَوُّ العابِقُ عَلى صُدورِنا، فَصَعُبَ عَلَيْنا التَّنَفُّسُ وأَحْسَسْتُ بِدُنُوِّ ساعَتي.

في الصَّباحِ ازْدادَتْ سُرْعَتُنا، وأَصْبَحَ الحَرُّ لا يُطاقُ. ولَمْ يَعُدْ تَحْتَنا ماءٌ وإنَّما حُمَمٌ مُلْتَهِبَةٌ. بَعْدَ ذٰلِكَ، بَدَأَتِ العَوّامَةُ تَهْتَزُّ وتَرْتَعِدُ، ثُمَّ أَخَذَتْ تَدورُ بِنا في حَلَقاتٍ.

لَقَدْ خارَتْ قُوايَ مِنْ ذٰلِكَ الجَحيمِ النّارِيِّ وحَرَكَتِهِ العَنيفَةِ، حَتّى إنّني بَدَأْتُ أَشْعُرُ أَنَّني أَقْتَرِبُ مِنَ الإغْماءِ. فَسارَعَ هانز إلى إمْساكي بِثَباتٍ ومَنَعَني مِنَ الارْتِطامِ حينَ أَخَذَتِ العَوّامَةُ تَصْطَدِمُ بِجَوانِبِ المَنْفَذِ.

لَسْتُ أَذْكُرُ بِوُضوحٍ ما حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ: فَكُلُّ ما أَذْكُرُهُ أَنَّنا كُنّا في خِضَمِّ دَوّامَةٍ نارِيَّةٍ صاخِبَةٍ. ثُمَّ أَفَقْتُ، وكَأَنّي أَعودُ مِنْ أَغْوارِ كابوسٍ رَهيبٍ، ووَجَدْتُ أَنَّني مُنْطَرِحٌ أَرْضًا على سَفْحٍ جَبَلِيٍّ وقَدْ تَمَدَّدَ بِقُرْبي كُلٌّ مِنْ عَمّي وهانز.

لَمْ أُصَبْ بِجُروحٍ بَليغَةٍ، إنَّما كُنْتُ أُعاني مِنْ إرْهاقٍ شَديدٍ جِدًّا، وكَذٰلِكَ كانَ رَفيقا الرِّحْلَةِ.



لاحَظْتُ ، بَعْدَ ذٰلِكَ ، أَنَّ السَّماءَ فَوْقَ رُؤوسِنا كانَتْ سَماءً حَقيقِيَّةً ، ولَيْسَتْ سَماءً مِنْ صُخورٍ. لَقَدْ رَأَيْنا السَّماءَ السَّماءَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ بَعْدَ اثْنَيْنِ وسِتّينَ يَوْمًا ، فَأَيْقَنّا أَنَّنا عُدْنا إلى وَجْهِ الأَرْضِ أَخيرًا. ولٰكِنْ ، في أَيِّ بُقْعَةٍ مِنَ الأَرْضِ كُنّا ؟

لاحظْتُ أَنَّ أَرْضَ السَّفْحِ المُنْحَدِرِ تَحْتَنا كانَتْ جافَّةً ومُلَوَّحَةً بِفِعْلِ حَرارَةِ الشَّمْسِ. وذاكَ يَعْني أَنَّنا لَمْ نَكُنْ قَطْعًا في أيسلَنْدا.

عَلى بُعْدِ حَوالَى خَمْسِمِئَةِ قَدَمٍ كانَ فَوْقَنا فُوَّهَةُ البُرْكانِ الّتي لَفِظْنا مِنْها. وكُنّا نَسْمَعُ، كُلَّ حَوالَى عَشْرِ دَقائِقَ، صَوْتَ انْفِجارٍ كَبيرٍ يَعْقُبُهُ تَطايُرُ صُخورٍ وحِجارَةٍ، وكُنْتُ أُحِسُّ بِالتَّحَرُّكاتِ البُرْكانِيَّةِ في الأَرْضِ تَحْتي.

أَمّا المِنْطَقَةُ المُحيطَةُ بِنا فَكانَ فيها غاباتٌ وبَساتينُ خَضْراءُ، وقَدْ ظَهَرَ بَعْدَها البَحْرُ الأَزْرَقُ، وإلى الشَّرْقِ بَدَتْ مَجْموعَةٌ مِنَ البُيوتِ.

لَقَدْ كُنّا عَلى جَزيرَةٍ صَغيرَةٍ، ورَأَيْتُ في البَحْرِ بِضْعَ سُفُنٍ راسِيَةٍ في ميناءٍ صَغيرٍ، وكانَتْ أَشْكالُ هٰذِهِ السُّفُنِ غَيْرَ مَأْلوفَةٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ.

رَأَيْنا، في البَحْرِ المُتَرامي، عَدَدًا كَبيرًا مِنَ الجُزُرِ. لَقَدْ كانَ المَنْظَرُ بِالفِعْلِ خَلّابًا.

فَكَّرْتُ في نَفْسي: «لا بُدَّ أَنَّنا في آسيا، عَلى شَواطِئِ الهِنْدِ أَو إِحْدى جُزُرِ المَلايو. لَقَدِ اجْتَزْنا نِصْفَ العالَمِ لِنَخْرُجَ مِنَ الجِهَةِ الثّانِيَةِ مِنَ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ. إِنَّنا...»

انْقَطَعَ حَبْلُ أَفْكاري عِنْدَما سَمِعْتُ عَمّي يَقولُ: «أَيًّا كانَ هٰذا الجَبَلُ، فَنَحْنُ في مَكانٍ شَديدِ الحَرِّ عَظيمِ الخَطَرِ. لَقَدْ خَرَجْنا سالِمينَ مِنْ قَلْبِ بُرْكانٍ ثائِرٍ، فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ نَموتَ الآنَ مِنْ جَرّاءِ وُقوعِ الصَّخْرِ عَلى رُؤوسِنا؟ فَلْنَنْزِلِ السَّفْحَ ونُحاوِلْ أَنْ نَعْرِفَ أَيْنَ نَحْنُ. ثُمَّ إِنّي أَكادُ أَموتُ جوعًا وعَطَشًا.»

العَوْدَةُ إلى المَدَنِيَّةِ

بَدَأْنا انْحِدارَنا نَحْوَ العُمْرانِ البَشَرِيِّ، وكانَ فُطورُنا بَعْضَ الثِّمارِ قَطَفْناها مِنَ الأَشْجارِ الّتي مَرَرْنا قُرْبَها. وقَدْ وَجَدْنا ماءً أَيْضًا، فَشَرِبْنا وارْتَوَيْنا، واغْتَسَلْنا، فَعادَ إِلَيْنا الشُّعورُ بِالانْتِعاشِ، وهُوَ ما افْتَقَدْناهُ لِزَمَنٍ طَويلٍ.

رَأَيْنا، فَجْأَةً، فَتاةً بَيْنَ الأَشْجارِ، فَاقْتَرَبَ مِنْها عَمّي وسَأَلَها بِلُطْفٍ: «يا صَديقَتي الصَّغيرَةَ، ما اسْمُ هٰذا البَلَدِ؟» ظَلَّتِ الفَتاةُ صامِتَةً لِأَنَّها لَمْ تَفْهَمْ ما قالَهُ. فَأَخَذَ يَسْأَلُها السُّؤالَ نَفْسَهُ بِعِدَّةِ لُغاتٍ يُتْقِنُها، إِلى أَنْ أَجابَتْ عِنْدَما طَرَحَ السُّؤالَ بِالإيطالِيَّةِ.



عَلِمْنا أَنَّ اسْمَ الجَزيرَةِ هُوَ «سترومْبولي» ، فَانْكَشَفَتِ الحَقيقَةُ المُذْهِلَةُ أَمامَنا : كُنّا في جَزيرَةٍ تَقَعُ في وَسَطِ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ .. لَقَدْ كانَ خُروجُنا المُثيرُ مِنْ بُرْكانِ «سترومْبولي» الشَّهيرِ . والتِّلالُ الثَّلاثُ الَّتي بَدَتْ ناحِيَةَ الشَّرْقِ هِيَ جِبالُ «كالابْريا» . أَمّا البُرْكانُ الآخَرُ الَّذي رَأَيْناهُ بَعيدًا ناحِيَةَ الجَنوبِ فَكانَ بُرْكانَ «إِتْنا» !

يا لَلرِّحْلَةِ المُدْهِشَةِ الَّتي قُمْنا بِها ! دَخَلْنا مِنْ بُرْكانٍ وخَرَجْنا مِنْ بُرْكانٍ آخَرَ ! وهٰذا الأَخيرُ يَبْعُدُ عَنْ بُرْكانِ سْنيفِلْز ، أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثَةِ آلافِ مِيلٍ . لَقَدْ غادَرْنا البِلادَ الجَليدِيَّةَ الجَرْداءَ ووَصَلْنا إِلى إِحْدى أَجْمَلِ بِلادِ الأَرْضِ .

سِرْنا نَحْوَ البَلْدَةِ الصَّغيرَةِ ، وقَدْ قَرَّرْنا أَنَّ مِنَ الحِكْمَةِ إِخْفاءَ حَقيقَةِ رِحْلَتِنا عَنِ النّاسِ لِأَنَّهُمْ لَنْ يُصَدِّقونا ولَنْ يَفْهَمونا ، لِذا ادَّعَيْنا أَنَّنا بَحّارَةٌ وأَنَّ مَرْكَبَنا قَدْ غَرِقَ .

كانَ اسْمُ البَلْدَةِ «سان فْنِشْترِو» ، وقَدْ رَحَّبَ أَهْلُها بِنا ، فَقَدَّموا لَنا المَأْوى والطَّعامَ وَالشَّرابَ ، وعامَلونا بِلُطْفٍ . أَمْضَيْنا في البَلْدَةِ يَوْمَيْنِ ارْتَحْنا خِلالَهُما واسْتَعَدْنا عافِيَتَنا . وهٰكَذا تَمَكَّنّا ، في الرّابِعِ مِنْ أَيْلولَ (سبتمبر) ، مِنَ الإِبْحارِ نَحْوَ «مَرْسيليا» الواقِعَةِ عَلى السّاحِلِ الفَرَنْسِيِّ . ومِنْ هُناكَ سافَرْنا إِلى هامْبورْغ الَّتي وَصَلْناها في التّاسِعِ مِنْ أَيْلولَ (سبتمبر) لَيْلًا .

أَحْدَثَتْ عَوْدَةُ البروفسور لِيدِنْبُرْك ضَجَّةً كُبْرى في هامْبورْغ . كانَ جَميعُ أَهْلِ المَدينَةِ ، سابِقًا ، قَدْ سَمِعوا بِنِيَّتِهِ في القِيامِ بِرِحْلَةٍ إِلى قَلْبِ الأَرْضِ ، ولَمْ يُصَدِّقْ مُعْظَمُ النّاسِ آنَذاكَ أَنَّ هٰذا مُمْكِنٌ . وهٰكَذا ، عِنْدَما رَأَوْهُ ثانِيَةً بَيْنَهُمْ سالِمًا ، فَإِنَّ المُشَكِّكينَ ازْدادوا شَكًّا .

ولٰكِنْ ، نَظَرًا لِوُجودِ هانز مَعَنا ، واسْتِنادًا إِلى الأَخْبارِ الوارِدَةِ مِنْ أَصْدِقائِنا في أيسلَنْدا ، صَدَّقَ بَعْضُ النّاسِ أَنَّ رِحْلَتَنا كانَتْ حَقيقِيَّةً . وهٰكَذا أَصْبَحَ عَمّي شَخْصًا مَشْهورًا ، ونِلْتُ أَنا كَذٰلِكَ نَصيبًا مِنْ هٰذِهِ الشُّهْرَةِ .



لِذلِكَ أُقيمَ حَفْلُ عَشاءٍ كَبيرٍ تكْريمًا لَنا وتَرْحيبًا بِعوْدَتِنا. وكانَ لَنا، في اليَوْمِ التّالي، لِقاءٌ حاشِدٌ في جامِعَةِ هامْبورْغ، شَرَحَ خِلالَهُ عَمّي تَفاصيلَ رِحْلَتِنا كامِلَةً.

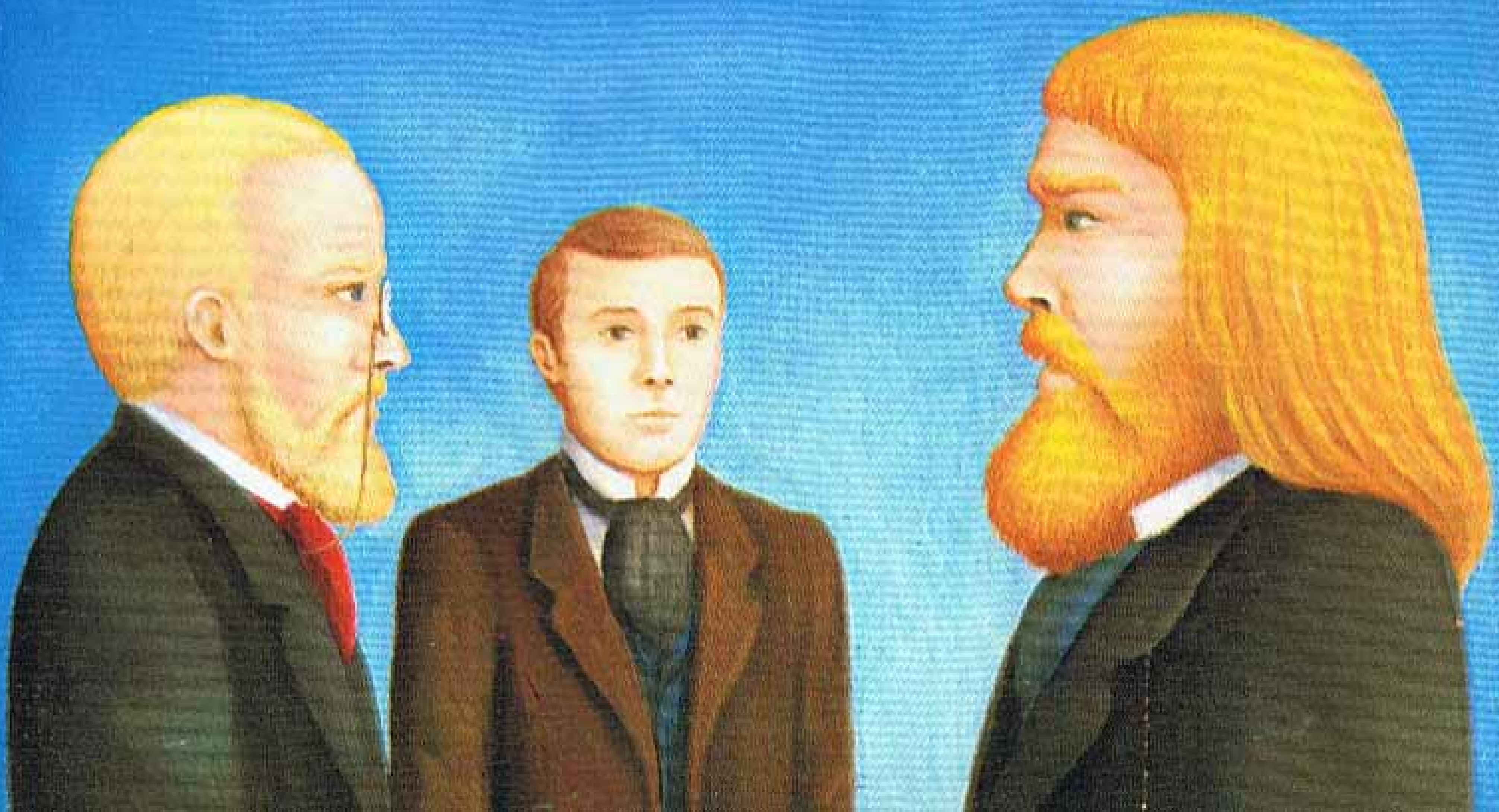
وفي اليَوْمِ نَفْسِهِ، قَدَّمَ هَدِيَّةً لِلمكْتَبَةِ العامَّةِ في المَدينَةِ هِيَ الوَرَقَةُ المَخْطوطَةُ بِيَدِ سَكْنوسِم.

وقَدْ ذاعَ صيتُنا وعُرِفَ اسْمي واسْمُ عَمّي في كُلِّ أَرْجاءِ العالَمِ لِأَنَّنا قُمْنا بِاكْتِشافٍ عِلْمِيٍّ هامٍّ.

ولٰكِنْ ما أَزْعَجَنا هُوَ أَنَّ صَديقَنا العَزيزَ هانز أَعْرَبَ عَنْ رَغْبَتِهِ في العَوْدَةِ إلى أيسلَنْدا. حاوَلْنا أَنْ نُقْنِعَهُ بِإِطالَةِ إقامَتِهِ مَعَنا، لِأَنَّنا شَعَرْنا بِأَنَّنا لَمْ نَكُنْ قَدْ وَفَّيْناهُ بَعْدُ كُلَّ ما يَسْتَحِقُّهُ مِنْ تَكْريمٍ عِرْفانًا بِجَميلِهِ وإقْرارًا بِفَضْلِهِ، فَنَحْنُ مَدينونَ لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ: بِنَجاحِنا وسَلامَتِنا وحَياتِنا.

لٰكِنَّهُ كانَ مُصَمِّمًا على العَوْدَةِ لِشَوْقِهِ إلى عائِلَتِهِ، لِذا احْتَرَمْنا رَغْبَتَهُ تِلْكَ، فَوَدَّعْناهُ بِتَأَثُّرٍ بالِغٍ وبِتَحَسُّرٍ على فِراقِهِ.

ومَعَ أَنَّ هانز اليَوْمَ بَعيدٌ عَنّا، فَإِنَّنا لَنْ نَنْساهُ أَبَدًا، ولا بُدَّ أَنْ أَقومَ يَوْمًا بِزِيارَةِ ذاكَ الإِنْسانِ الشَّهْمِ الّذي أَنْقَذَ حَياتي مِنَ الهَلاكِ.





جول ڤِرْن (١٨٢٨ – ١٩٠٥)

يُعْتَبَرُ جول ڤِرْن أَحَدَ كِبارِ رُوّادِ القَصَصِ العِلْمِيِّ.

وُلِدَ ڤِرْن سَنَةَ ١٨٢٨ في مَدينَةِ نانْت. بَدَأَ بِدِراسَةِ الحُقوقِ في باريسَ، ولٰكِنَّ اهْتِماماتِهِ الرَّئيسَةَ تَوَزَّعَتْ بَيْنَ تَأْليفِ الأوپِريتاتِ ومُتابَعَةِ السُّوقِ المالِيَّةِ.

كانَ ذا مَقْدِرَةٍ فائِقَةٍ في كِتابَةِ قِصَصٍ تَدورُ حَوْلَ رِحْلاتٍ خَيالِيَّةٍ. وقَدْ تَطَوَّرَتْ هٰذِهِ المَوْهِبَةُ بِسُرْعَةٍ، حَتّى إنَّه، بَيْنَ العامَيْنِ ١٨٦٢ و١٨٧٢، أَلَّفَ أَرْوَعَ رِواياتِهِ: «خَمْسَةَ أَسابيعَ في مُنْطاد» (١٨٦٢)، و«رِحْلَةَ إلى قَلْبِ الأَرْض» (١٨٦٤)، و«مِنَ الأَرْضِ إلى القَمَرِ» (١٨٦٥)، و«عِشْرونَ أَلْف فَرْسَخ تَحْتَ البَحْر» (١٨٦٩)، و«حَوْلَ العالَمِ في ثَمانينَ يَوْمًا» (١٨٧٢). وقَدْ نَقَلَتِ السِّينَما مُعْظَمَ هٰذِهِ الرِّواياتِ في أَفْلامٍ مُثيرَةٍ وناجِحَةٍ.

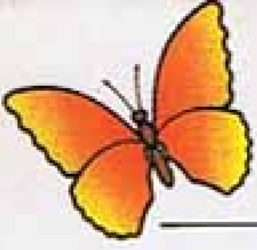
أَصابَ ڤِرْن شُهْرَةً واسِعَةً خِلالَ حَياتِهِ، وعاشَ حَياةَ أَديبٍ ناجِحٍ وثَرِيٍّ بَيْنَ باريسَ و«أميان» ويَخْتِهِ الخاصِّ في البَحْرِ المُتَوَسِّطِ.

تُوُفِّيَ جول ڤِرْن في «أميان» سَنَةَ ١٩٠٥.



كتب الفراشة - القِصص العالميّة

١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليڤَر تْويسْت
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْڤيل
٨ - قِصَّة مَدينَتين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير
١٣ - حَوْلَ العالَم في ثمانينَ يَومًا
١٤ - رِحْلَة إلى قَلْب الأرض
١٥ - كُنوز الملِك سُلَيْمان
١٦ - سايْلس مارْنَر
١٧ - شيرْلي
١٨ - رِحلات غاليڤر
١٩ - بعيدًا عن صَخب النّاس
٢٠ - مُغامَرات هاكِلْبري فين
٢١ - ديڤيد كوپرفيلد
٢٢ - البيت المُوْحِش (بْليك هاوْس)
٢٣ - المهر الأسود (بْلاك بْيُوتي)



كتب الفراشة

القصص العالمية ١٤. رحلة إلى قلب الأرض

«**رِحْلة إلى قَلْب الأَرْض**» هي رِحْلةٌ مُشوِّقة إلى عالَم عَجيب قائِم في جَوْف الأَرْض: فَمِن أَنْفاقِ المَنافِذ البُرْكانيّة ومَتاهات المَمَرّات الجَوْفيّة إلى غاباتٍ مِن فُطور عِمْلاقة وبِحارٍ مُترامِيَة الأَطراف تحتَ قُبَبٍ سَماوِيّة ذات أَنْوار غَريبة، بِالإضافة إلى حَيَوانات ضَخْمة انْقَرَضَتْ مَثيلاتُها عن وَجْه الأَرْض منذُ آلاف السّنين...

هٰذا العالَمُ الأَخّاذ هو مُسرحٌ لِمُغامَرة تُفوقُ كُلَّ تَصوُّر، نَعيشُها، لَحْظةً بِلَحْظة، مَعَ أَبْطال **جول فِرْن** رائِدِ القَصَصِ العِلْميِّ الخَياليِّ ومُغامَراتِ الأَسْفار والاسْتِكْشافات.



مكتبة لبنان ناشرون

